الباب الثاني

عصر صدر الإسلام والدولة الأموية

الأدب الإسلامي

عوامله، مصادره، أنواعه، طبائعه:

تركنا العصر الجاهلي والجزيرة العربية يهدر جوفُها من ضرم الحياة هدير الحميم المكظوم. ونريد بجوفها الحجازَ بعد ما خمد النشاط العربي في الجنوب باستيلاء الفرس على اليمن، وفي الشمال بإلغائهم إمارة اللخميين في العراق، فارتد تيار النهضة العربية إلى الحجاز وتدفق في مدنه، ولا سيما مكة؛ لأن مكة يومئذ كانت مثابة الشرب لوجود البيت، ومعقلَ العروبة لاعتصامها بالصحراء من النفوذ الأجنبي، ومجَمع الثروة لوقوعها في طريق القوافل الآتية من الجنوب تحمل متاجر الهند واليمن إلى الشام ومصر؛ فهي سوق تجارية ومحَجَّة دينية يؤمها العرب من أطراف الجزيرة يشترون منها السلع الأهلية والأجنبية، ويقضون مناسك الحج، ويشهدون موسم عكاظ، ويتذوقونَ في ظلال الأشهر الحرم - وهي الهدنة العامة المقدسة - نعمةَ السلام ولذة الهدوء، ويصلون بينهم ما قطعته أسنة الرماح في الغارات والحروب. وكانت قريش قطب الرحا لهذه الحركة الدينية والاقتصادية والاجتماعية لولايتها على الكعبة، ورياستها في عكاظ، وزعامتها في التجارة، وغناها من الإيلاف، وتقلبها في البلاد، وتمرسها في الأمور، وصلتها بمختلف الشعوب، فأخضعت العرب لسلطانها بالدين والشرف والمال، وفرضت عليهم لغتها وأدبها، فكادت اللهجات بفضلها تتحد، والقلوب بدليلها تتجه نحو غاية واحدة، وكان اليهود في يثرب واليمن فوق نشاطهم الصناعي والزراعي يشيعون أكل الربا وينشرون تعاليم التوراة وأخبار النبوات. وكانت النساطرة واليعاقبة من المسيحيين يبشرون بالإنجيل، ويدعون إلى الحياة الأخرى، ويحملون معهم تأثير اليونان والرومان في الفلسفة والتشريع، ويهيئون الأذهان لكلمة الله. وكان الشعراء ينتقلون من سوق إلى سوق، ومن ماء إلى ماء، ينشدون أهازيج الحماسة على أوتار العصبية، فيؤرِّثون نار العداوة والخلاف بين القبائل من جهة، ويذيعون وحدة الخلق والعادة واللغة من جهة أخرى، ويمهدون للنفوس الرغيبة السجينة سبيل النهوض إلى الغاية

التي يدعوهم إليها اللَّه، ثم كان الأعرابُ في قفار البادية يفتك بهم الجهل والجدب والحرب، ويعانون إلى ذلك عنت الكبراء. وأثرة الشيوخ، وفقد الأمن، وتوزع الثروة على مقتضي السيادة والقوة. ناهيك مما يقاسونه في أرزاقهم من فحش الربا وأكل السُّحت وتطفيف الكيل وكلَب الزمان. فكان من جرَّاء هذه المادِّية القبيحة، والطبيعة الشحيحة، والنظام الفاسد، أن تهيأت الطبائع السليمة إلى حياة أرقى ومَثل أعلى مما هم فيه. ولكن العرب كما قال ابن خلدون: «أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، فقلما تجتمع أهواؤهم. ومن أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوَّة أو ولاية أو أثر من الدين على الجملة». وكان ذلك فعلا طريق الإصلاح الذي خرج منه العرب إلى العالم ليبلغوه الرسالة ويحكموه، فقد كان ظهور الإسلام في ذلك الحين نتيجة محتومة لتلك الحال، ونقضاً صريحاً لتلك الحياة. تعرف ذلك جليًّا من تسمية القرآن للدين بالإسلام ولما قبله بالجاهلية. ففي تلك التسمية كل الفروق بين الحياتين والعقليتين في المبدأ والغاية، إذ الجهل معناه السفه والحمية والأنفة ـ وهي ملاك الأخلاق في الجاهلية، والإسلام معناه السلام والتسامح والإنقياد إلى اللَّه ـ وهي قوام الدين الجديد الذي يقول: ﴿**وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هوْناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً**﴾[1] وبمعنى ذلك قول عمرو بن الأهتم يفاخر الأحنف بن قيس، وقد اجتمعا للرياسة بين يدي عمر بن الخطاب: «إنا كنا وأنتم في دار جاهلية، فكان الفضل فيها لمن جهل، فسفكنا دماءكم، وسبينا نساءكم؛ وإنا اليوم في دار الإسلام والفضل فيها لمن حلم. فغفر اللَّه لنا ولك» فغلب على الأحنف.

فالإسلام إذن قد قلب العقلية العربية قلباً، وشن على الجاهلية حرباً، ورسم للاجتماع مثلاً أعلى يخالف ما ألفوه، ويناقض ما عرفوه:

فالشجاعة، والشهامة، والكرم الموفى إلى السرف والتلف، والتفاني في الإخلاص للقبيلة والقسوة في الانتقام، والثأر ممن تعدى على النفس أو على الأهل بالقول أو بالفعل، هي أصول الفضائل عند الجاهلية، أما الإسلام فقد جعل المثل الأعلى للإنسان الخضوع للَّه والانقياد لأمره، والقناعة والتواضع، ومجانبة التكاثر والتفاخر، ثم الصبر. وقد قال اللَّه تعالى: ﴿**إنَّ أكرمَكم عِنْدَ اللَّه أتْقَاكُم**﴾[2] وقال الرسول ﷺ في خطبة الوداع: «إن اللَّه تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء كلكم لآدم؛ وآدم من تراب، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»[3] فماتت بذلك العصبية القومية والجنسية، وأصبحت

---

(١) سورة؛ الفرقان، الآية: ٦٣. (٢) سورة: الحجرات، الآية: ١٣.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب (الحديث ٥١١٦) بنحوه، وأخرجه الترمذي في كتاب: المناقب، باب: فضل الشام واليمن (الحديث ٣٩٥٦) بنحوه.

السيادة للدين لا للنسب، والإخاء في اللّه لا في العصب. وهذا التغير في العقلية يستلزم حتماً تغير ما يصدر عنها من فكر وتصوير وقول: فالشاعر الذي كان يستلهم شيطانه قصائد المفاخرة والمنافرة والهجاء: والخطيب الذي كان يستقطر من لسانه سموم للعداوة والبغضاء؛ والفارس الذي كان يرتع ليله ونهاره في الدماء والأشلاء؛ والرئيس الذي كان يعيش على امتياز الرؤساء؛ والغني الذي كان يفجر ويثرى بدماء الفقراء، وقفوا جميعاً صامتين منصتين لدعوة الإسلام لا يقولون ولا يفعلون إلا ما يأمر به اللّه أو يقره الرسول. وأصبح القرآن والحديث دستور الأمة. ويسنان الشرائع، ويرسمان الآداب. ويهذبان الأخلاق ويقرّان في القلوب المشركة المجرمة كلمة التوحيد وحقيقة البر، ويضيفان نظماً جديدة للأسرة ولأمة تغاير ما كان عليه العرب من قبل، وتساير ما سيكونون عليه من بعد. فضاقت دائرة الشعر في عهد الرسول لموت العصبية وقوة الروح الدينية، وانضوت الخطابة تحت لواء القرآن تدعو إليه، وتقابل الوافدين عليه، وتسير على هديه وتقتبس من نوره. و قتضت الدعوة الكبرى نظام الرسائل فنشأت على نمط جديد، وقلّت الأمية لحاجة الدين إلى الكتابة وتشجيع النبي عليها بعد موقعة بدر، ونقل الدواوين كلها إلى العربية. وأخذ المعادون للدين يعارضون القرآن ويجادلونه، والموالون له يحفظونه ويدارسونه. ودعا اتساع رقعة الإسلام إلى استنباط أصول الأحكام من مصادر الدين، والاجتهاد بالرأي فيما لم يرد فيه نص. فتجلى صفاء العبقرية العربية ذات المنطق الموهوب فيما قضى به علي وعمر وزيد بن ثابت وعبد اللّه بن عباس وعبد اللّه ابن مسعود وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل؛ و زدادت هذه الروح الفقهية المنطقية صفاء وجلاء بعد ذلك فيما شجر من الخلاف بين العلويين والأمويين والخوارج على أثر الخصومة بين علي ومعاوية.

على أن من الغلو أن نقول إن تعاليم الإسلام قد بلغت إلى كل نفس وأثرت في كل قلب حتى يكون تغير العقلية العربية تاماً من كل وجه، فإن ذلك إن صدق على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين أسلموا قبل الفتح لا يصدق على من أسلم من بعده، ولا على الأعراب المتمردين بطبيعتهم على كل قيد من دين أو قانون أو سلطان، فكانوا لجفائهم وغلظ قلوبهم أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله. وكان من زعمائهم من يُقبل على الإسلام كقيس بن عاصم، لا على أنه الدين الحق، ولكن على أن يكون له الأمر بعد الرسول. وقال النبي ﷺ: «إنَّ مَثَلَ ما بعثني به اللّه من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادبُ أمسكت الماء فنفع اللّه به الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كَلأ»[1]. ومصداق هذا

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم (الحديث ٥٩١٢)، وأخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: فضل من عَلِمَ وعَلَّمَ (الحديث ٧٩).

الحديث الكريم ثـابت في بقاء البـدو على نزعتهم الجـاهلية من مهاجاة وحميَّـة وشراب، وحدوث الرِّدة على أثر وفاة الـرسول، وشيـوع الغناء والشـراب والغزل في مـدن الحجاز، وانبعـاث العصبيـة ونـزاعهـا بين القحـطانيين والعـدنـانيين، وبين الهـاشميين والأمـويين، واشتدادها في عهد بني أمية. وهذا يفسر لنا بقاء الشعر الأموي على نمط الشعر الجاهلي في طريقته وطبيعته دون أن يتأثر بروح الإسلام لا كثيراً ولا قليلاً، إذ كان جمهور الشعراء إنمـا يصدرون عن البادية ويعبرون عن نوازي العصبية في الأحزاب والقبائل.

* * *

لم يكن تأثير الإسلام في العقلية العربية والفنون الأدبية آتياً من جهة عقيدته وشريعته وروحه فحسب، وإنما أثر فيها كذلك من جهة ما نشأ عنه من الفتوح والنزاع على الإمامة، فمن أثر الفتوح خروج العرب من جـزيرتهم إلى الجهـاد، وانتشارهم في مختلف البـلاد، واستيلاؤهم على ممالك كسرى وقيصر، وامتزاجهم بالأجناس المتعددة، وتأثرهم بالمدنيات والعقليات المختلفة؛ فقد فتحوا العراق وهو وارث حضارة قديمة وموطن أمم عظيمة ونِحَل كثيرة، ومصروا فيه البصرة والكوفة. وفتحوا فارس وهي إحدى الدولتين اللتين حكمتا العالم القديم يومئذ وأثرتا في عقله وأهله. وفتحوا الشام وقد سادت فيه الثقافة الرومانيـة والديـانة النصرانية بعد ما خلف فيه الفينيقيون والكنعـانيون والمصـريون واليـونان والغسـانيون آثـاراً ظاهرة في العادات والاعتقادات والنُّظم؛ وفتحوا مصـر وهي مهد المـدنية والفن، ومجمـع الحضارتين اليونانية والرومانية، ومُتلقى الفلسفتين الشرقية والغربيـة؛ وفتحوا بـلاد المغرب إلى جبل طارق، ثم ما وراء النهر إلى كشغر. وسكان هذه المماليـك يرجعـون إلى أصول ساميَّة وحاميَّة وآرية، ويدينون بأديـان سماويـة وأرضية، ويتكلمـون بلغات فـارسية وقبـطية وعبرية وسريانية ويونانية ولاتينية، فأخضعهم العرب إخضاعاً مادياً وأدبياً وروحيـاً من طريق الفتح واللغة والدين، وخضع العرب لهم خضوعاً عقلياً وجنسياً باقتبـاس مدنيتهم وعقليتهم وجنسيتهم من طريق المجاورة والمصاهرة والاسترقاق، وكان من ذلك التفاعل هذا الامتزاجُ العجيب الذي تولدت منه العلوم الشرعية والفنون الأدبية والحضـارة الإسلاميـة التي طبقت الأرض ومهدت لرقي الإنسان الحديث.

هذا أثر الفتوح. وأما أثر الخصومة في الإمامة فذلك الجدل العنيف بين الفرق الأربع التي نجمت عن الخلاف في الخلافة بين علي ومعاوية، ذلك الجـدل الذي اتسـع به أفق الـذهن العربي بـالاحتجـاج والاستنتـاج، إذ كـان اعتمـاده على تـأويـل القـرآن، وافتعـال الأحاديث، واستخدام الشعر في إثارة العصبية وتحبير الرسائل في القضايا السياسية والوصايا الدينية، وعقد المناظرات وإلقاء الخطب. ففي الحجاز حزب يؤيد ابن الزبير، وفي الشـام حزب يعضد بني أمية، وفي العراق الشيعة يدعـون إلى بيت الرسـول، والخوارج ينكـرون

ويكفرون هؤلاء جميعاً ولكل حزب من هذه الأحزاب كما قلت رأي في الخلافة، ونظر في الدين، وحجة من الكتاب والسنة. وعدة من الخطابة والشعر. وحسبك أن تقرأ بعض جدلهم في الطبري والعقد الفريد وشرح النهج لابن أبي الحديد والكامل للمبرد، لتعلم أثر هذا الخلاف في عقلية العرب، وأثر هذه العقلية في فنون الأدب.

نستخلص مما تقدم أن أهم العوامل المؤثرة في الأدب الإسلامي هي: خمود العصبية الجاهلية في عهد الرسول، ثم استعارها في عهد بني أمية، ونشوء الروح الدينية، وتغير العقلية العربية، وتحسن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، وظهور الأحزاب السياسية، واتساع الفتوح الإسلامية وتأثير الأمم الأجنبية بلغاتها وعاداتها واعتقاداتها وأدبها. ثم أساليب القرآن والحديث، والمأثور الصحيح من الشعر الجاهلي والأمثال. وقد أجملت القول في آثار هذه العوامل اعتماداً على تفصيلها حينما تعرض لكل فن على حدة، فلندع ذلك الآن ولننتقل إلى مصادر الأدب الإسلامي.

مصَادرُ الأدب الإسلامي

نستطيع أن نحصر هذه المصادر في القرآن؛ والحديث، والأدب الجاهلي وما نقل من الأدب الأجنبي.

١ ـ القرآن الكريم

القرآن أول كتاب دوِّن في اللغة العربية؛ فدراسته ضرورية لتاريخ الأدب؛ لأنه مظهر الحياة العقلية والحياة الأدبية عند العرب في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للمسيح. وهو واضع النثر الفني ومنبع المعاني والأساليب والمعارف التي شاعت في أدب ذلك العصر. نزل بأسلوب بديع لا عهد للآذان ولا للأذهان بمثله؛ فلا هو موزون مقفى، ولا هو سجع يتجزأ فيه المعنى في عدد من الفقَر، ولا هو مرسَل يَطَّرد أسلوبه دون تقطيع ولا تسجيع؛ إنما هو آيات مفصلة متزاوجة يسكت عندها الصوت ويسكن الذهن لاستقلالها بالمعنى وانسجامها مع روح القارىء ووجدانه. فلما سمعه العرب وهم زعماء القريض وأمراء البيان أكبروه وأنكروه، وعجزوا عن أن يردوه إلى نوع من أنواع الكلام المعروفة؛ فقالوا مضطربين: إنه شعر شاعر أو فعل ساحر أو سجع كاهن. ووصفهم إياه بأنه نوع من هذه الأنواع التي تشترك في فتنة العقل دليل على فعله القوي في نفوسهم.

والقرآن باعتباره كتاباً أُحكمت آياته ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير، لا يجرؤ النقد البياني على أن يطير في جنباته، وباعتباره معجزة الرسول تحدى به العرب أن يأتوا بسورة من مثله، تورع المسلمون عن أن يقلدوه فراراً من تهمة المعارضة، وتنزيهاً لكلام الخالق أن يتشبه به كلام المخلوق. ومما لا ريب فيه أن بعض المشركين والمتنبئين قد عارضوه إبطالاً لحجته، أو انتهاجاً لخطته، على نحو ما ورد عن مسيلمة: «يا ضفدعِ نقي ما تنقين، فلا الماء

تكدرين، ولا الشارب تمنعين»، ولكن الرواة أغفلوا ذلك إما تورعاً وإما ترفعاً، كما فعلوا بمعارضة ابن المقفع والمتنبي وأبي العلاء إن صح أنهم فعلوا ذلك. وهنا طائفة من متأخري الكتاب حاولوا الجري على أسلوب القرآن إعجاباً به فما حركوا في النفوس غير السخر والضجر لنزولهم عن رتبته وعجزهم عن لحاقه فكفوا. ولذلك لم يكن تأثير القرآن كبيراً من جهة إحداثه مذهباً كتابياً يتبعه الناس ويدور عليه النقد. أما تأثيره القوي فكان في نقله النثر من تلك الجمل القصيرة المسجوعة المفككة إلى تلك الصور الأنيقة التي تقرأها في أحاديث الرسول وخطبه وكتبه، وفي خطب الصحابة والتابعين ورسائلهم. جملٌ متزاوجة، متناسقة، متطابقة، متخيرة الألفاظ، حسنة التأليف، رائعة التشبيه، منطقية الغرض، تنفذ من العقل والقلب إلى الصميم. كذلك أثر في النثر بوضعه المُثُل لمعالجة القصص والوصف والاشتراع والجدل المنتج والموعظة الحسنة، واستحداثه ألفاظاً وتراكيب وموضوعات لا يعرفها العرب، فظلَّت آيُهُ على طوال القرون قوة للخطيب وحلية للمنشىء، يرصع بها كلامه فتتميز بطلاوتها ونفاستها كما تتميز اللؤلؤة الفريدة في عقد من الجِزْع.

أسلوبه:

نزل القرآن منَجَّما في نحو ثلاث وعشرين سنة على حسب ما يعرض من الحوادث؛ منها ثلاث عشرة سنة في مكة نزل في خلالها ثلاث وتسعون سورة، وعَشرة بالمدينة بعد الهجرة نزل فيها إحدى وعشرون. هذه السور الأربع عشرة ومائة تختلف في موضوعها وأسلوبها باختلاف الزمان والمكان والحادث، فكان من الحوادث والقضايا ما ينزل فيه الآية والآيات، ومنها ما ينزل فيه السورة. وكان الصحابة يحفظون أو يكتبون ما ينزل كلاً على حدة، فلم يكن القرآن إذن خاضعاً لقانون التأليف من وحدةِ الموضوع ووحدة الأسلوب وعقد الأبواب على مقتضى الأغراض، وإنما تجمَّع على هذه الصورة ودُوّن بعد وفاة الرسول تبعاً لما كان يجده الكاتبون أولاً فأولاً محفوظاً في الصدور أو مسطوراً في الصحف. ثم رتب بوجه التقريب على حسب الطول والقصر لا على حسب تنزيله ولا على حسب موضوعه، فتكررت بعض القصص لتأكيد الإنذار أو لتشابه الأسباب، وتَشَتَّتْ وحدة الموضوع والأسلوب لنزوله متفرقاً في مكانين مختلفين وأزمان متراخية وأغراض متجددة، وهو في ذلك يختلف عن التوراة والإنجيل.

تشتمل السور المكية ـ وهي ثلثا القرآن ـ على أصول الدين وتشتمل المدنية على أصول الأحكام. وأصول الدين جُمَّاعها الإيمان باللّه ورسوله واليوم الآخر، والائتمار بالمعروف والانتهاء عن المنكر؛ وهي أمور تتصل بالعاطفة والوجدان؛ فالدعوة إليها والحث عليها يقتضيان الأسلوب الشعري القوي الموثَّق الفعال بالقلب بقصصه الواعظة، وحكمه البالغة، وأمثاله السامية، ووعده الخالب، ووعيده المخيف، ولذلك تجد أسلوبها قصير

الآي، كثير السجع، رائع التشبيه، قوي المجاز. وأما أصول الأحكام من عبادات ومعاملات فهي موضوع السور المدنية، والتعبير عنها يقتضي الأسلوب المحكم الجزل الهادىء؛ وهدوء البيان يستلزم طول الجمل، وتفصيل الآي، ووضوح الغرض. على أن القرآن لا يصطنع في التشريع أساليب الفقه ولا تعريفات القانون، وإنما يسوق الأحكام في معارض الدعاية والهداية، لأن قصده الأول إنما هو إعلان التوحيد وإظهار الدين، وتطهير القلوب من أوضار الضلالة والجلالة والشرك؛ ولأن الدولة الجديدة لم تكن في عهد الوحي من الاتساع وتشعب الاجتماع بحيث تطلب التشريع المفصل.

إعجازه:

تناصرت الأدلةُ وانعقد الإجماع على أن القرآن معجز، وإنما الخلاف في سبب إعجازه. فمن قائل إنه شرفُ الغرض، وتَنَوُّع القصد، والإخبار بالغيب. ومن قائل إنه الفصاحة الرائعة، والمذهب الواضح، والأسلوب الموثَّق ونحن إلى هذا الرأي أَمْيَلُ. فإن القوم الذين تُحُدُّوا به لم يكونوا فلاسفة ولا فقهاء حتى يكون عجزهم عن الإتيان بمثله معجزة، إنما كانوا بُلَغاء مَصادعَ، وخطباء مصاقع، وشعراء فحولاً. وفي القرآن من دقة التشبيه والتمثيل، وبلاغة الإجمال والتفصيل، وروعة الأسلوب، وقوة الحِجاج، ما يُعجز طَرَقَ البشر، ويرمي المعارضين بالسّكات والحصْر.

لغته:

لغة قريش هي الأصل في لغة القرآن، لأن النبي ولد فيها وبُعث منها؛ ولأن لغتها تفضل سائر اللغات بحلاوة الجرْس ودقة الوضع وإحكام النظم، وقبيلتها تشرُف سائر القبائل بجوار البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد، ولكنه نزل كذلك بلغة بني سعد بن بكر؛ لأن الرسول ﷺ استرضع فيهم، وهي إحدى لغات العجز من هوزان وأفصحها، لقوله ﷺ: «أنا أفصح العرب بيَد أني من قريش، وأني نشأت في بني سعد بن بكر».

وجاء في القرآن بعض ألفاظ من لغات عربية أخرى كقوله تعالى ﴿لَا يَلِتْكُم مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾[1] أي لا ينقصكم بلغة بني عبس، ثم وقع فيه من غير لسان العرب أكثر من مائة كلمة ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والعبران والسريان والقبط، كالجبت والاستبرق والسندس والقسطاس والزنجبيل، وقد صقلها العرب على لسانهم، وأجروها على أوزانهم، فصارت بذلك عربية.

---

(١) سورة: الحجرات، الآية: ١٤.

أغراضه ومعانيه:

علمت أن من القرآن ما نزل بمكة ومنه ما نزل بالمدينة. فالمكي من سوره يشتمل على أهم ما جاء الرسول من أجله: ففيه توحيد اللَّه بذكر صفاته وتمجيد آياته، وتأييد الرسول بتحدي المكابرين، وضرب الأمثال بأحوال الغابرين، ورفض الأوثان وما يتصل بها من عادات واعتقادات، وإثبات اليوم الآخر وما يتعلق به من جنة ونار وتبشير وإنذار، ثم الإذن لرسول اللَّه أن يجاهد الشرك بالسيف.

وأما المدني منها فيمتاز بوصف المغازي وذكر أسبابها، وما يستفيده المؤمنون من نتائجها وأعقابها، وسن الشرائع الدينية كالصلاة والزكاة والصوم والحج، والاجتماعية كالأحوال الشخصية والمعاملات المدنية والحقوق الجنائية، وما تستتبعه من قصاص وحدود، وفي كل ذلك ترى الألفاظ مؤتلفة مع المعاني، والمعاني متفقة مع الأغراض، اتفاقاً دونه الفن والمنطق وليس فوقه إلا قدرة اللَّه!

تأثيره:

شغل المسلمون بالقرآن وفرغوا له، فكان دعاءهم في المسجد، ونظامهم في البيت، ومنهاجَهم في العمل، ودستورهم في الحكومة. فسرى هَديهُ فيهم مَسرى الرُّوح ونزل وحيهُ منهم منزلة الطبع، وأثر في ألسنتهم وأفئدتهم وأنظمتهم ما لم يؤثره كتاب سماوي آخر في أهله. فأما تأثيره في اللغة وأدبها ـ وهو ما يعنينا الآن ذكرُه ـ فبأنه خالط من القوم قلوباً قاسية فألانها، وطباعاً جافية فأرقها، وأحلاماً طافية فأقرّها، فكسَبَ ذلك اللغة عذوبة في اللفظ، ورقة في التركيب، ودقة في الأداء، وقوة في المنطق، وثروة في المعاني، ووسع دائرة اللغة باستحداثه الألفاظ الدينية كالصلاة والزكاة والقيام والركوع والسجود والوضوء والمؤمن والكافر الخ، واقتضائه علوماً جديدة كالنحو والصرف والاشتقاق لدفع اللحن عنه، والمعاني والبيان والبديع لتقرير الإعجاز فيه، وعِلمي اللغة والأدب لتفسير غريبه وتوضيح مشكله، والحديث والأصول والفقه والتفسير لاستنباط أحكام الشرع منه. وهو الذي ضمن بقاءها تلك القرون العديدة، ونشرها في مجاهل الأصقاع البعيدة، مصداقاً لقول اللَّه تعالى: ﴿**إنَّا نحنُ نزّلنا الذكْرَ وإنا له لحَافِظون**﴾[1] وحفظ القرآن يستلزم حفظ لغته.

قراءاته:

لم يكن امتزاج اللغات ولا اتحاد اللهجات تاماً من كل وجه عند انبثاق نور الإسلام، وإنما بقي على نواحي الألسنة لُحون مختلفة كالفتح والإمالة، والإظهار والإدغام، والمد

---

(١) سورة: الحجر، الآية: ٩.

والقصر، وتحقيق الهمز وتخفيفه، وترقيق الحرف وتفخيمه، وضم الهاء والميم في نحو عليهُم وإليهُم. فلما نزل القرآن بلغة قريش ولهجتهم لم يستطع من عداهم من العرب أن يتغلبوا في الزمن اليسير على الفطرة اللغوية، واللهجة الأمية، فقرأوه بلحونهم وأقرهم الرسول على ذلك تيسيراً للقراءة وتسهيلاً على الناس.

فلما اختبلت الألسنة، واضطربت السلائق، وزاغت القلوب بعد اتساع الفتوح وانتشار العرب وانشعاب الفرق، نشأ من جهلهم بالهجاء، ومن شدة اختلافهم في المنطق والأداء ومن جرأة ذوي العلل والمراء، قراءات لم تظاهرها العربية ولا صحة السند ولا رسم المصحف، فتجرد قوم في المائة الأولى لضبط القراءات وحصر وجوهها وتبيين مذاهبها، وجعلوها علماً كما فعلوا يومئذ بالحديث والتفسير. واشتهر من هؤلاء ومن الطبقة التي وليتهم سبعة تنسب إليهم القراءات إلى اليوم وهم: عمرو بن العلاء (١٥٤) وعبد اللّه بن كثير (١٢٠) ونافع ابن نعيم (١٦٩) وعبد اللّه بن عامر (١١٨) وعاصم بن بهدلة الأسدي (١٢٨) وحمزة بن حبيب الزيات (١٥٦) وعلي بن حمزة الكسائي (١٨٩) وتلك هي سبع القراءات المتفق على صحتها إجماعاً وهناك ثلاث قراءات تليها في الصحة والتواتر وهي قراءة أبي جعفر المدني (١٣٢) وقراءة يعقوب بن إسحاق الحضرمي (١٨٥) وقراءة خلف بن هشام. وما سوى هذه العشر فشاذ.

جمعه وتدوينه:

نزل القرآن منجماً كما قلنا في ثلاث وعشرين سنة لوقائع موجبة وأحوال داعية. وأعلن ختامه في السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول بثلاثة أشهر، وبعد أن رتبت آيه وتمت سوره؛ إلا أنها لم تجمع في مصحف واحد في حياته، وإنما توفي رسول اللّه والقرآن إما مسطور في العُسُب واللّخاف والأكتاف، وإما مذكور على ألسنة الصحابة ولما قتل من قرائه سبعون في غزوة اليمامة، فزع المسلمون وأشفق عمر أن يذهب القرآن بذهاب حُفّاظه، فتقدم إلى أبي بكر في جمعه. فتردد الخليفة وقال: «كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول اللّه ولم يعهد إلينا فيه عهداً!» فما زال عمر يداوره حتى أقنعه. وعهد بذلك إلى زيد بن ثابت أحد كتبة الوحي وصاحب العرضة الأخيرة على الرسول، فجمعه من السطور والصدور. وكتبه صحفاً أودعت عند أبي بكر وعند عمر من بعده. ثم كانت هذه الصحف في خلافة عثمان عند حَفْصَة بنت عمر زوج النبي. فلما اتسعتْ رقعة الدولة وانتشر القراء في الأرض اختلفوا في قراءاتهم اختلافهم في لهجاتهم، وفخر بعضهم على بعض بحسن قراءته وصدق روايته؛ فحشي عثمان أن يختلفوا في دلالته كما اختلفوا في تلاوته، فأمر زيد بن ثابت وعبد اللّه بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمٰن بن الحارث ابن هشام، فنسخوا تلك الصحف في مصحف واحد ورتبوا سوَره على الطول والقصر، واقتصروا فيه على لغة قريش لنزول القرآن

بها، وأمر عثمان الناس أن يكتبوا مصاحف من هذا المصحف، وبعث في كل أفق بواحد منها، وكانت سبعة فأرسلها إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وحبس بالمدينة واحداً، وهو مصحفه المسمى بالإمام، ثم أمر بجمع ما عدا ذلك فأحرق.

قبس من نوره

قال اللّه تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ؟ وعَسَى أَنْ تَكرَهُوا شَيْئاً وَهُو خَيْرٌ لَكُمْ. كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَليلةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللّهِ وَٱللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ. قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذَى. ومَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَها وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. لَنْ تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ. وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ. إِنْ يَنْصُرْكُم ٱللّه فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَنْصُرُكُم مِنْ بَعْدِهِ. مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيراً. قُلْ لاَ يَسْتَوِي ٱلخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلو أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ. مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيل. إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شاكِلَتِهِ. لِلهِ ٱلأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ. مَا جَعَلَ اللّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جَوْفِه. وَلاَ يَحِيقُ ٱلمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِه إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفى بِما عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً. وَلاَ تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَة وَلا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فإِذا ٱلذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَة كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْت. كلُّ نفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ. وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ، يَحْسَبُونَ كلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذرّةٍ شرًّا يَرَهُ. وَقَضى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبالْوَالِدَيْنِ إِحسانَاً؛ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُماً أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَولاً كرِيماً. وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيانِي صَغِيراً، رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً. وَآتِ ذَا ٱلقُرْبَى حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً. إِنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخوانَ ٱلشيَاطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً. وَإِمَّا تُعْرِضَنّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً. وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً. إِنَّ رَبكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خبِيراً بَصيراً. وَلا تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ

وَإِيَّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً. وَلاَ تَقْرَبُوا ٱلزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً. وَلاَ تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً. وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً. وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِـالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ، ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً. وَلاَ تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ الْسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا، وَلاَ تَمْشِ فِي ٱلأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لنْ تَخْرِقَ ٱلأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجبَالَ طُولا كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾.

٢ ـ الحديث

الحديث هو قول رسول اللّه أو حكاية فعله أو حديث الصحابة عنه. فهو في المنزلة الثانية من كتاب اللّه فيما يتعلق بالدين والثقافة، وأغزر ينابيع التشريع في العبادات والحقوق، وأقوم طريق يؤدِّي إلى فهم القرآن: يوضح إشكاله، ويفصِّل إجماله، ويقيد إطلاقه، ويخصص عمومه. والأحاديث التي صحت عن رسول اللّه قليلة، ولكنها موسومة بطابع البيان والإلهام والعبقرية، لنشأته في قريش، واسترضاعه في بني سعد وهي أفصح القبائل العربية، وتضلعة من لغة القرآن واطلاعه على لغة العرب، وقدرته الفطرية على ابتكار الأساليب العالية، ووضع الألفاظ الجديدة لما استحدث من المعاني الدينية والفقهية؛ ولكن قيمتها اللغوية ودلالتها التاريخية لا تسموان إلى مكان القرآن في ذلك، لأن القرآن كان يدوِّنه عند نزوله كتبةُ الوحي، وكونه كلامَ اللّه جعل الاحتفاظ بنصه فرضاً على المسلمين، ﴿فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾[1] أما الحديث فلم يدون إلا حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة، وكان قبل ذلك إنما يُروى من الذاكرة والذاكرة كثيرا ما تخون، فذله من تغيير الكلمات واختلاف الروايات أكثر مما نال الشعر الجاهلي. وزاد في ذلك أن العلماء أجازوا رواية الحديث بالمعنى لاستحالة المحافظة على اللفظ في نقله مشافهة طوال هذه السنتين. وقامت الخصومات السياسية، ونجمت الفرق الدينية، فاستجاز أولوا الأهواء الكذبَ على الرسول، فوضعوا ألوف الأحاديث تأييداً لدعوتهم وترجيحاً لنزعتهم. واستباح قوم وضع الأحاديث الموافقة لمبادىء الدين وقواعد الفضيلة. وحجتهم أن الناس لا يأخذون إلا بنص الكتاب أو مأثور السنة؛ فملأوا الكتب بأحاديث الترغيب والترهيب وتعدوا ذلك إلى وضعها في فضائل الأشخاص والمدن والسُّور لدعوة سياسية أو نزعة عصبية أو غاية دينية، كالأحاديث الموضوعة في فضل قريش على العرب، وفضل العرب على العجم، وتفضيل بعض الصحابة على بعض، والمنقولة في بعض التفاسير في فضائل السوَر ترغيباً للناس في

(١) سورة البقرة، آية: ١٨١.

دراسة القرآن حين لهوا عنه بالفقه والسير. ومن طريق الوضع أدخلوا في الحديث طائفة كبيرة من الحكم المأثورة عن العرب، والآراء المنقولة عن العجم، فأثرت في الخطابة والجدل والشعر تأثيراً غير قليل.

كان عمر وبعض الصحابة لا يرون التوسع في رواية الحديث اتقاء لخطر الوضع وحرصاً على كتاب اللّه أن يجر هذا الوضع إلى الاختلاف فيه أو الانشغال عنه. وقد قال عمر لقرظة بن كعب ولمن حوله من الصحابة حين خرجوا إلى العراق: إنكم تأتون أهل قرية لهم دويّ بالقرآن كدوي النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم. جَوِّدوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول اللّه ﷺ. ونظن أن ذلك الخوف هو الذي صرفه أيضاً عن الإشارة بجمع الحديث كما أشار بجمع القرآن حتى لا يكون بجانب كتاب اللّه كتاب آخر يشاركه العناية؛ فقد رَوى الزهري عن عروه بن الزبير أن عمر أراد أن يكتب السنن واستشار أصحاب رسول اللّه ﷺ فأشار عليه عامتهم بذلك، فلبث شهراً يستخير اللّه في ذلك شاكا فيه. ثم أصبح يوماً وقد عزم اللّه له فقال: إني كنت قد ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم، ثم تذكرت فإذا ناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب اللّه كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب اللّه، وإني واللّه لا ألبِّس كتاب اللّه بشيء.

فكان من جرَّاء ذلك الخوف هذه الفوضى التي شوهت جمال الدين، وموَّهت حقائق التاريخ، وساعدت على نشر الفتنة، ولم يفطنوا إلى درئها إلا حين استفحل السر وانتشر الأمل وأصبح الطب لدائها مستحيلاً.

ليس من هَمِّ الأديب أن يعني عناية الفقيه واللغوي والنحوي والمؤرخ بما نال الحديث من اختلاف وتبديل، ولا بما نال المحدّثين من جرح وتعديل، فإن الأدب إنما يعتبر الأحاديث صادقها وكاذبها مذهباً من مذاهب القول ومصدراً من مصادر المعنى لهما الأثر البالغ فيه. وليس من شك في أن الوضاعين كانوا يقلدون أسلوب الرسول ويتوخون استعمال كلماته واصطلاحاته، حتى لا تجد بين أكثر الأحاديث إلا فرق ما بين صدق النسبة إلى الرسول وكذبها. هذا من جهة الشكل، أما من جهة الموضوع فإن الأحاديث الصحيحة كانت طريق العلم والإرشاد، والأحاديث الموضوعة كانت طريق الرأي والاجتهاد؛ لأنها آراء فردية اجتهادية نسبها أصحابها إلى الرسول لتحل من قلوب الناس محل الثقة، فكانت طريقاً لبسط الفقه، وتهذيب الخلق، ونشر الثقافة، ونشوء الرأي المجتهد بجانب السنة الصحيحة في التشريع.

أسلوب الحديث:

الحديث كما يدل عليه اسمه لا يخرج عن هذا النوع العادي المألوف الذي يملأ كل مجلس ويتناول كل موضوع. ومن مستلزماته عدم التحضير وقلة التفكير واختلافه باختلاف

المقامات والأحوال؛ ولكن أحاديث الرسول وإن كانت فيض الخاطر وعفو البديهة، يبدو عليها أثر الإلهام وسمة العبقرية وطابع البلاغة. وأسلوبها أقرب إلى أسلوب عصر النبوة منه إلى أسلوب القرآن، وإنما يمتاز بإشراق ديباجته واتساق عبارته وتساوق ألفاظه وفِقَرِه لأداء معنى واضح معيّن، ومطابقة مدلوله لمقتضى الحال، وملاءمة لغته للغة المخاطب. وأشد ما يكون ذلك ظهوراً حين يخاطب الوفود، فالرسول يستعمل الغريب، ويلتزم السجع، ويذكر ألفاظاً من مهجور اللغات تبعاً لما جرى على لسان الوافدين عليه: من ذلك حديثه مع طهفة بن أبي زهير النهدي، ومع لقيط بن عامر بن المنتفق، وذلك من حسن أدبه وسمو بلاغته وقوة تأثيره.

أما أكثر الأحاديث فإن عليها رواء الطبع وجلال النبوة ورونق الفصاحة. وللرسول قدرة عجيبة على التشبيه والتمثيل وإرسال الحكمة وإجادة الحوار، وتلك ميزة الرسل من قبل ولا سيما المسيح، لأن المرسلين في مقام المعلمين، وأنجح ما يكون في التعليم طريقة التمثيل والمحاورة، كقوله عليه السلام: «إن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى. المؤمن هَيِّن لَيِّن كالجمل الأنف إن قيد انقاد، وإن أُنيخ على صخرة استناخ. أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم لو توكلتم على اللّه حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير: تغدو خماصاً وتروح. بِطانا مَثَل المؤمن كالنحلة، لا يأكل إلّا طيباً ولا يطعم إلا طيباً. إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم المؤمن آلف مألوف. ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف. إنّ أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، الموطأون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون. وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون. إياكم وخضراء الدِّمن: المرأة الحسناء في المنبت السوء. المرأة كالضِّلع إن رُمْتَ قوامها كسرتها. الناس كلهم سواسية كأسنان المشط. جنة الرجل داره. إن قوماً ركبوا سفينة فاقتسموا، فصار لكل رجل منهم موضع، فنقر رجل منهم موضعه بفأس، فقالوا له ما تصنع؟ قال هو مكاني أصنع فيه ما أشاء. فإن أخذوا على يده نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا».

وأثر الأسلوب النبوي فاش في كلام الصحابة وخطبهم، وعلى الأخص في أسلوب من اشتد خلاطهم به أو كثرت روايتهم عنه، كالإمام عليّ وأبي هريرة. فمن قول الإمام عليّ كرم اللّه وجه: «ألا وإن الخطايا خيل شُمُس حُمل عليها أهلها وخلعت لُجُمها فتقحمت بهم في النار. وإن التقوى مطايا ذُلُل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة. حق وباطل، ولكل أهل. شُغل مَن الجنة والنار أمامه. ساعٍ سريع نجا، وطالب بطيء رجا، ومقصر في النار هوى اليمين والشمال مَضَلة، والطريق الوسطى هي الجادَّة».

وأما أبو هريرة فأكثر الناس حديثاً عن الرسول حتى بلغ ما رواه أربعة وسبعين وثلاثمائة وخمسة آلاف، أكثر لفظها وأسلوبها له وإن كانت جارية على أسلوب السنن. وقد ارتاب

بعض الصحابة في كثرة ما روى فقال: «إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول اللّه، واللّه الموعد. كنت رجلاً مسكيناً أخدم رسول اللّه على ملء بطني، وكان المهاجرون يشغلهم الصَّفْق في الأسواق، وكان الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم، وكنت ألزم رسول اللّه فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا!».

٣ ـ الشعر الجاهلي

وجد النثر في القرآن الكريم والحديث الشريف خطة جديدة ومنبعاً فياضاً فجعلهما دليله ومدده، ومضى في طريق الاستقلال والاكتمال والتطور. وانتقل الشعر إلى الإسلام مع العرب فلم يجد منه قبولاً حسناً ولا صدراً رحيباً، مخافة من عصبيته وجاهليته على وحدة المسلمين وألفة العرب، فظل ينافق كالأعراب وهواه كله في البادية، ينتزع منها أخيلته وطرقه وصوره. وإذن لا نستطيع أن نفهم الشعر الإسلامي إلا بالرجوع إلى منبعه ومشرعه، وقد ألممنا بالشعر الجاهلي إلمامة تغنينا عن استئناف البحث فيه، فلننتقل إلى المصدر الرابع وهو:

٤ ـ الأدب الأجنبي

تقع جزيرة العرب بين مدنيتين من أعظم مدنيات العالم وهما: مدنية الفرس في شرقها، ومدنية الرومان في غربها، وبينها وبينهما اختلاط من قديم الزمن خلَّف بعض الآثار في اللغة والأدب من طريق التبادل المادي والمعنوي؛ ولكن هذا الاختلاط أصبح بعد أن فتحهما الإسلام امتزاجاً شديداً تداخلت به اللغات والأفكار والعقائد حتى صار مورداً فياضاً من موارد الأدب؛ فقد دخل القوم في دين اللّه، ودخل كثير من سباياهم في بيوت العرب، واضطروا إلى تعلم العربية والتكلم بها، ولكن هؤلاء وأمثالهم لم يغيروا إلا ألسنتهم، أما أخيلتهم وتصوراتهم وتعبيراتهم فقد ظلت على الجبلة الأولى: يفكرون بالفارسية أو الرومية، ويتكلمون أو يكتبون بالعربية، ولغاتهم مرسومة القواعد، وآدابهم واضحة المناهج، وحضاراتهم مشرقة الجوانب؛ فلم يكن بد من تأثر الآداب العربية بالآداب الأعجمية والعقلية الآرية، وأظهر ما يكون هذا التأثر في اللغة والتشريع والأخلاق والشعر والرسائل والقصص.

فاللغة قد اتسعت مادتها بما اقتبسته من الألفاظ الفارسية للتعبير عما لم يعرفه البدو في تدوين الدواوين، وتنظيم الحكومة، وسياسة الملك، ومقتضيات الحضارة، من أداة وطعام وزينة، ووضعت قواعدها على منهج النحو السرياني، وقام على ضبطها وبسطها الأعاجم. وقد عقد السيوطي في كتابه المزهر فصلاً لما أخذه العرب من الفارسية والرومانية والسريانية والقبطية، ولكن اللغويين خلطوا في ذلك لجهلهم بهذه اللغات، فنسبوا إلى بعضها ما ليس منها. وغالى الفرس في رد أكثر المعربات إلى لغتهم عصبية أو جهالة، حتى زعموا أن

الرسول تكلم بالفارسية، ورووا في ذلك حديثين أحدهما قوله: إن جابراً صنع لكم سوراً، أي ضيافة والآخر قوله: العنب دو، والتمريَك: أي في تناولهما مثنى وفرادى. وذلك في تحقيق العلماء لا أصل له. وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين أن أهل المدينة عرفوا ألفاظاً من قوم من الفرس نزلوا فيهم، فيسمون البطيخ. خِربز، والسميط أي المنتوف الصوف: رُوذَق. وإن أهل الكوفة يسمون المسحاة بال، والسوق: بازار، وذلك كله فارسي. وقد حكى أبو مهدية الأعرابي بعض ألفاظ أعجمية كانت فاشية لعهده فأنكرها، وذكر منها على سبيل المثال قوله:

يقولون لي شنبذ وَلست مشنبذاً ... طوال الليالي ما أقام ثبير
ولا قائلاً زودَا ليعجل صاحبي ... ويشتان في قولي على كبير
ولا تاركاً لحني لأتبع لحنهم ... ولو دار صرف الدهر حيث يدور

والتشريع تأثر في تفاصيله بفقه الرومان، والأخلاق اعتمدت كثيراً على ما نقل من حكم اليونان عن طريق السريان، والشعر والنثر قد أخذ يتعاطاهما جماعة من الموالي، كزياد الأعجم، وأبي العباس الأعمى، وموسى شهوات، وإسماعيل بن يسار من الشعراء؛ وسالم مولى هشام؛ وتلميذه عبد الحميد بن يحيى، وَصديقه ابن المقفع من الكتاب. وقد قال أبو هلال العسكري: «من تعلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه في الأولى. وكان عبد الحميد الكاتب قد استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحوَّلها إلى اللسان العربي».

وأما القصص، وهو هنا حكاية التفسير والأثر والخبر تعليماً وموعظة، فقد شابهُ شيء مما كانوا يسمونه العلم الأول. ويريدون به ما أخذوه من أخبار الأمم وأحوال الأنبياء، والنُذر الأولى عمن أسلم من أهل الكتاب، كعبد اللّه بن سلام الذي أسلم عند هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وكعب الأحبار الذي أسلم في خلافة عمر؛ أو من الموالي كوهب بن مُنَبِّه أحد الأبناء الذين عاشوا في اليمن فعرفوا أخبار اليهود، واتصلوا بالحبشة فعرفوا أخبار النصارى. وكان هو يعرف اليونانية. فاتسع بذلك علمه، وكان أول من صنّف قصص الأنبياء في الإسلام. ثم طاووس بن كيسان التابعي، وموسى بن سيار الأسواري. وقد قال الجاحظ في موسى هذا إنه من أعاجيب الدنيا: كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب اللّه ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يُدرى بأي لسان هو أبين.

وتأثير أدب الموالي في أدب العرب أكبر وأظهر من تأثير أدب اليونان والرومان فيه؛ لأن اليونان والرومان لم يدخلوا في الدين ولا في العربية حتى يكون تأثيرهم مباشراً؛ بل ظلوا

مستقلين غير متصلين إلا بمقدار الصِّلات الاقتصادية. والعرب لقرب عهدهم بالبداوة وجهلهم باللغات، واشتغالهم بالفتوح والخصومات، وتعصبهم لآدابهم لم يفكروا في نقل شيء من أدب هؤلاء وأولئك. وأما الفرس فقد انتقلوا إلى العرب ذاتاً ومعنى ووطناً، فاندمجوا فيهم وامتزجوا بهم وأثروا بأنفسهم في دينهم ولغتهم من غير طلب ولا وساطة. وانصرف العرب إلى سياسة المُلْك وقيادة الجند وأقصوا عنهما الموالي، فعكف هؤلاء على تحصيل العلوم الشرعية واكتساب الفنون الأدبية، فكان منهم رواة الحديث، وحملة الفقه، وكتبة الدواوين، وقالة الشعر، وعلماء النحو واللغة، وبذلك اتصلوا بسببنا، وفنى أدبهم في أدبنا، كما تفنى شآبيب المطر في عباب المحيط.

أنواع الأدب الإسلامي

الشعر

الشعر في عهد الرسول:

ظهر الإسلام وقد تحكم في حياة العرب جاهلية قاسية وعقلية جافة وعصبية مفرِّقة فكان الشعر مظهر هذه الصفات وباعثها. فلما أعلن الرسول الحرب على هذه الأخلاق تمهيداً لألفة القلوب ووحدة العرب، كان من الطبيعي أن يُنغض الإسلام رأسه إليه، وألا يشجع الناس عليه؛ ففي القرآن: ﴿**وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُون**﴾[1] ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَه**﴾[2]، وفي الحديث. «لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا حتى يَريَه خيرٌ له من أن يمتلىء فمه شعرا»[3]، فازور جانب المسلمين عن قرض الشعر وروايته، على علمهم بأن الدين لم يكرهه على إطلاقه، وإنما كره منه ذلك النوع الذي يمزق الشمل ويثير دفائن القلوب. ثم شغل الإسلام العرب جميعاً بالدعوة العظمى: فمن مؤيد ومن معارض. واشتدت الخصومة بين الرسول وبين قريش، فجردوا عليه الأسِنَّة والألسنة، ولكن شعراء العرب وقفوا موقف الحياد والتربص وينتظرون نتيجة المعركة بين التوحيد والوثنية، وبين الديمقراطية والأرستقراطية، وبين محمد وقريش، فلم يغامر في الخصومة إلا الشعراء القرشيون، وقد كانوا قلالاً قبل الإسلام لشواغل الحضارة والتجارة، فصاروا كثاراً بعده لدواعي النزاع والمعارضة. بدأ هذه الحملة منهم عبد اللّه بن الزِّبَعْرى وعمرو بن العاص

---

(١) سورة: الشعراء، الآية: ٢٢٤.

(٢) سورة: يس، الآية: ٦٩.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب: الأدب، باب: ما جاء في الشعر الحديث (الحديث ٥٠٠٩)، وأخرجه ابن ماجة في كتاب: الأدب، باب: ما يكره من الشعر (الحديث ٣٧٥٩).

وأبو سفيان، فآذوا الرسول وأتباعه بقوارص الهجاء، فهاج ذلك من شاعرية المسلمين وودوا لو يأذن لهم الرسول بمساجلتهم؛ فما هو إلا أن قال لهم: «ماذا يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم؟» حتى نهض للقرشيين نفر من الصحابة، فيهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وشبوها حرباً كلامية جاهلية لم يهاجم المهاجمون فيها بفضائل الوثنية، ولم يدافع المدافعون بفضائل الإسلام، حتى نقول إن الشعر قد خطا في مذاهب الفن خطوة جديدة، بل كانوا يتهاجون على النمط المعروف من الفخر بالأنساب والتبجح بالسؤدد. يدل على ذلك قول الرسول لحسان: «اذهب إلى أبي بكر فهو أعلم بمثالب القوم»، وقوله: «كيف تهجو قريشاً وأنا منها؟ فقال: «أسلك كما أسل الشعرة من العجين».

فليس من شك في أن الشعر ظل على عهد الرسول جاهلياً. فلما خضعت قريش وسائر العرب للدين الجديد بعد لأي، خرست الألسنة اللاذعة وفر الشعر الجاهلي ثانية إلى البادية. وانصرف المسلمون إلى حفظ القرآن ورواية الحديث وجهاد الشرك، فَخَفَتَ صوت الشعر لقلة الدواعي إليه، فما كان يظهر إلا الحين بعد الحين في صادق المدح والرثاء. وتساهل الرسول في سماعه حتى أثاب عليه، وحتى قال فيه. «إن من البيان لسحراً وإن من من الشعر لحكمة».

الشعر في عهد الراشدين:

تلك كانت حالة الشعر في عهد النبوة، وأما حاله بعدها فأقل شأناً وأحط مكانة لذهاب المعارضة ولشدة الخلفاء في تأديب الشعراء، وانصراف همم العرب إلى الفتوح. ولكن الدين قد بدأ يفعل في النفوس، ومظاهر الحضارة قد أخذت تؤثر في الأذهان، فظهر أثر ذلك ضئيلاً في شعر المخضرمين ككعب بن زهير والحطيئة ومَعْن بن أوس والنابغة الجعدي، ولكنه أثر لا يتعدى بعض الألفاظ الإسلامية كالمعروف والمنكر والصلاة والزكاة والجنة والنار والمهاجرين والأنصار. ولذلك نرى من المبالغة جعل المخضرمين طبقة ممتازة؛ فإن شعرهم استمرار للمذهب الجاهلي لم يتأثر بالإسلام إلا تأثراً عرضياً كضعف الأسلوب في شعر حسان، أو قلة الإنتاج في قريحة لبيد، أو كثرته في الحطيئة والنابغة الجعدي مثلاً، والأشبه بالحق أن نقرر ما أشرنا إليه من قبل، وهو أن الشعر العربي ظل في الجاهلية والإسلام واحداً في مظهره وجوهره ونوعه حتى أواخر عهد بني أمية. والتأثير الذي ناله من الموالي والسياسة والحضارة والدين لم يعطفه إلى طرق جديدة وإنما وسع في معانيه ومناحيه، فقوَّى بعض أغراضه كالهجاء، وميز بعضاً آخر كالغزل. وهل يمكن التجديد في الشعر وجل الشعراء إنما يأتون من البادية، والخلفاء يتعصبون البادية، والرواة والأدباء واللغويون يطلبون اللغة والشعر في البادية؟ فضلاً عن أن العرب بطبيعتهم يميلون إلى التقليد ويجلون القديم المأثور من

سؤدد وخلق وأدب: فليس من سبيلنا أن نتكلف البحث العقيم في القرن الأول عن مذهب شعري جديد يصح أن يكون أساساً لأدب عربي جديد، فإن مذهب عمر بن أبي ربيعة في الغزل لا يختلف عن مذهب امرىء القيس إلا في المعاني الحضرية؛ ومذهب جرير والفرزدق في الهجاء لا يختلف عن مذهب الحطيئة والشماخ إلا في المعاني السياسية. فلنقصر الجهد إذن على تحليل نهضة الشعر في العراق والحجاز على عهد بني أمية وبيان خطرها وأثرها في الإنتاج العقلي للعرب.

* * *

كانت القحطانية والعدنانية، والعلوية والبكرية، والهاشمية والأموية، والعروبة والشعوبية، تضطرم في نفوس المسلمين اضطرام البركان قبيل أن يثور. ولكنها كانت تضعف حيناً وتشتد حيناً تبعاً لسياسة القائم بالأمر ونظام حكمه؛ فالقبائل كانت تنزل منازلها في البلاد على هذه الفكرة، والبصرة والكوفة تخططان على هذه الفكرة، والخلاف ينجم في فارس والشام والعراق والأندلس من هذه الفكرة، وكلها تدور على الزعامة والإمامة، فمن كان سيداً في الجاهلية يريد أن يكون سيداً في الإسلام! كأن العرب لم يفهموا من الدين الجديد إلا إنه طريق إلى السلطان وسبيل إلى الغلبة والثروة والحكم ليس غير. ولعلك تذكر أن بعضاً من شيوخ القبائل كقيس بن عاصم والأحنف بن قيس كانوا يعرضون على الرسول أن يدخلوا في دين اللّه لا على أنه الدين الحق، بل ليكون لهم الأمر من بعده!

ظلت هذه الروح العصبية مكظومة في عهد الشيخين لأخذهما الأمور بالحزم والعدل، ولانصراف العرب إلى المغنم عن طريق الجهاد والفتح. فلما وُلِّيَ الأمر عثمان وهنت اليد المصرفة فسندتها يد أخرى، وتشتت الرأي فلم يصدر عن الخليفة وحده، وحكم آله الناس بعصبيتهم الأموية لا بقوميتهم العربية. وكان المسلمون يومئذ قد أفاءت عليهم الفتوح والمغانم الثراء إلى حد البطر؛ فاستيقظت الفتنة وقامت الثورة وانتهت بمقتل عثمان، وتجددت الخصومة على أثر ذلك بين عليٍّ ومعاوية. وقتل الإمام فتحرج الأمر وانشقت العصا. وانصرف العرب عن جهاد العدو إلى جهاد أنفسهم باللسان والسيف. وتفرقوا أحزاباً وشيعاً بعضها للدين وبعضها للدنيا. ففي الشام حزب يشايع بني أمية، يريض لهم الأمر ويمكنهم في الملك. وفي الحجاز حزب يناصر ابن الزبير، يؤيده في دعواه وينصره في دعوته. وفي العراق حزب يشايع أهل البيت ويطلب لهم بحقهم في الخلافة. وهنالك حزب ديمقراطي ينكر الأحزاب ويكفر الزعماء ويقول بالشورى في الخلافة. وفي هذه الأحزاب الأربعة توزعت أهواء المسلمين وآراؤهم إلا طائفة قليلة لزمت الحياد وأرجأت الحكم بين المختلفين إلى قضاء اللّه يوم الدين وهم المرجِّئة. واتصلت بين الأحزاب الخصومة، وأعنف فيها الخصوم؛ ولكن معاوية بعد أن تم له الأمر كان يصانع معارضيه بالدهاء والعطاء والإغضاء والحزم، حتى استوثق له الأمر طيلة حياته إلا من جهة الخوارج. فلما مات أفاق

خصومه من خَدَر سياسته فزعزعوا عرشه؛ حتى إذا وَهيَ أدركه مروان وبنوه فسندوه واقتعدوه. وفي زمن عبد الملك اشتدت المعارضة واستعرت الحروب، وكثر المطالبون بالخلافة، وانبسط سلطان العرب، وزخرت موارد الفيء، واكتمل شباب الجيل الذي نشأ في الإسلام، واغتذى بثمر الفتوح، واستمتع بجمال الحضارة، واختلط بأنماط شتى من الناس، وساهم بيده ولسانه في هذه الفتن، فبلغ الأدب العربي غاية ما قدر له أن يبلغ. فهل يمكن أن يظل الشعر بنجوة عن هذه الحياة الصاخبة، والعصبية الغالبة، والأحزاب المتحاربة، والأهواء المتضاربة. والشعر العربي ربيب الخصومة والجدل، تبعثه الحزبية ويقويه الهراش وتوحيه شياطين الفرقة؟ الواقع أنه كان وقود هذه الفتن ولسان هذه الأحزاب، يصطنعونه كما نصطنع نحن الصحف اليوم، فيناضل عن زعمائه، ويدافع عن آرائه، ويصطبغ بصبغة العقيدة التي يدعو إليها وينافح عنها. وإذا علمت أن العرب جميعاً ساهموا في هذه الخصومات، وأن أكثرهم يقول الشعر وخصوصاً في هذه الأزمات، وأن الأمويين استمالوا بالمال هوى الشعراء، وأوقدوا بينهم نار التنافس والهجاء، وأن الشعر أصبح صناعة متميزة يعيش عليها بعض الناس، أدركت سبب وفرة الشعر وكثرة الشعراء في عصر عبد الملك، إذ بلغ عدد الفحول المائة. وليس من شك في أن الشعر وإن حافظ على طريقته وطبيعته قد تأثر بهذه الحياة الجديدة تأثراً ظاهراً في معانيه وأغراضه، ولكن هذه الحياة لم تكن كلها نزاعاً سياسياً ولا جدلاً دينياً حتى يقف تأثره عند هذا الحد، وإنما كان لها مظاهر أخرى يحسن أن نشير إليها قبل أن ندل على آثارها في الشعر.

نظرة عامة

في العراق:

كان من الطبيعي أن تختلف مظاهر هذه الحياة في العواصم العربية لاختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية فيها. فالعراق كان منذ القدم منتجع الخواطر العربية لخطبه ونمائه، ووفرة ظله ومائة. وقد لاذ العرب قبل الإسلام بأطرافه وأريافه واللسان واليد فيه للفرس فأنشأوا إماه المناذرة. فلما فتحوه في عهد عمر نزحوا إليه وأنشأوا على حدود البادية البصرة والكوفة. وكان في العراق ميراث وفْرٌ من العلم والأدب والدين خلفته الأمم الغابرة، ولم يؤت العراق ما أوتيت مصر من قوة الهضم والتمثيل حتى يحيل سكانه إلى جنسية واحدة وعقلية واحدة، فانطبعت الأهواء فيه على الفرقة، والنفوس على التنافر. وأتى إليه العرب بالعصبية اليمنية والنزارية، ووقعت فيه الأحداث الإسلامية الجُلّى كواقعة الجمل ومصرع الأئمة والقادة، وما نجم عن ذلك من قيام الشيعة والخوارج، واشتداد المعارضة لبني أمية، واستحكام الخلاف بين البصريين والكوفيين في السياسة والدين والعلم، فكانت البصرة عثمانية، والكوفة بعد استقرار الإمام علي بها علوية، والجزيرة الفراتية إما نصرانية وإما

خارجية، لأنها مسكن ربيعة وهم كما قال الأصمعي رأس كل فتنة. ومن ربيعة بنو تغلب الذين قال فيهم الإمام علي: «يا خنازير العرب! والله لئن صار هذا الأمر إليَّ لأضعن عليكم الجزية». فكان الشعر العراقي صورة لهذه الحياة الثائرة المتنافرة، فهو قوي عنيف يكثر فيه الهجاء والفخر، وتتلون فيه العصبية القبَلّية ألواناً شتى من التحزب للمكان والعقيدة والجنس، وتتغلب فيه النزعات الجاهلية على التعاليم الإسلامية، وتغذيه نفحات بدوية وصلات أموية، فيزدهر وينتشر حتى يشغل كل لسان ويحتل كل مكان ويعبر عن كل مبدأ.

في الحجاز:

والحجاز منبع الإسلام كان أشبه بينابيع النهر: يفيض منه الماء الصافي في سكون ورفق، حتى إذا بعد مجراه اعترضته الشلالات وتقسمته التيارات، فتكدر نميزه واشتد هديره، وتوزعته الجداول والأقنية، فبعضه في سباخ الأرضْ، وبعضه في الرياض، فروى بعضاً وأعرق بعضاً انتقلت منه الخلافة والمعارضة والعلم إلى العراق والشام وبقي هو كما كان وكما هو الآن يقبل المال والمعونة من كل قطر. واقتضت سياسة الأمويين أن يعتقلوا فيه شباب الهاشميين فلا يتركونه إلا بإذن، وسلطوا عليهم الترف، وشغلوهم بالمال عن الملك، وخلوا بينهم وبين الفراغ، وقد ورثوا مع ذلك عن آبائهم المجاهدين مغانم الفتح من أموال ورقيق، وفي أهل الحجاز ملاحة ظرف ووداعة نفس ولطافة حس وفصاحة لسان ومحبة لهو، فتبسطوا عَلَى النعيم، وعكفوا عَلَى اللذة، وقطعوا أيامهم بالمنادرة والمنادمة، وذهبوا في حياة المجون كل مذهب. ووصل الحج بينهم وبين الحسان والقيان، واستهوت هذه الحال المغنين فوفدوا إلى مكة والمدينة من أقطار الدولة حتى اجتمع منهم في وقت واحد كما يقول أبو الفرج الأصبهاني «ابن سُرَيْج، والغَريض، وَمَعْبَدَ وحنين، وابن محرز، وجميلة، وهِيْت، وطُوَيْس، والدلاَل، وبرد الفؤاد، ونومة الضحى، ورحمة، وهبة اللَّه، ومالك، وابن عائشة، وابن طنبورة، وعزة الميلاء وَحَبَابة، وَسلامة، وبلبلة، ولذة العيش، وَسعيدة، وَالزرقاء، وابن مِسْحح» وَحتى غلب الغناء عَلَى أعمال الناس وميوله، فقد حدث الإمام مالك عن نفسه قال: «نشأت وَأنا غلام أتتبع المغنين وَآخذ عنهم، فقالت لي أمِّي: يا بُنَيّ إن المغني إذا كان قبيح الوجه لا يُلتفت إلى غنائه، فدَعِ الغناءَ وَاطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه. فتركت المغنين وَاتبعت الفقهاء فبلغ اللَّه بي عز وَجل ما ترى». من ذلك شاع الحب في مدن الحجاز ورقَّتْ عواطف بنَيه، فسلكوا بالشعر مسالك الغزل الحضري الرقيق الصادق، حتى كاد هذا الفن لافتنانهم فيه يبتدىء بهم وَينتهي إليهم.

في الشام:

وأما الشام فكان بنجوة من الثورات النفسية والأزمات السياسية لخضوعه لبني أمية

وإخلاصه لهم وانصرافه إلى تأييدهم، فلا هو مضطرم العواطف كالحجاز، ولا هو مضطرب الأهواء كالعراق، وقد أمن الخلفاء جانبه فتركوه لشأنه دون أن يثيروا عصبيته لخلاف، أو يهيجوا طماعيته لمغنم، فبقي الشعر من جراء ذلك راكداً في نفوس أهله لا يبعثه باعث، ولا يتوفر على دراسته وروايته باحث. وأكثر ما كان فيه من ذلك إنما كان يفد إليه من العراق والحجاز مع الشعراء الذين يجذبهم سخاء القصر أو دهاؤه، والأدباء الذين يطلبهم الخلفاء من البصرة كلما أعضلتهم مسألة في اللغة والنحو والأدب.

خصائص الشعر في العراق:

لعل الشعر العراقي الإسلامي أصدق ما يصور حياة البادية وأصح ما يعبر عن نفسية العرب؛ فإنه ـ وإن كان كما قلنا استمرار للشعر الجاهلي يصدر عن دوافعه وينبع من منابعه ـ أنقى جملة وأبين علة وأصلح نسبة، لقربه من عصر التدوين واتصاله بأسباب السياسة وأحداث التاريخ: وهو مظهر تلك الحياة المدنية الأولية التي هيَّأها الإسلام للعرب لأول مرة، فجعل من الأشتات وحدة ظاهرها الجماعة والألفة، وباطنها العداوة والفرقة؛ فهو مهاجاة بين الأفراد، ومساجلة بين الأحزاب، ومفاخرة بين القبائل، ومدح للزعماء والخلفاء. وهذه الموضوعات بطبيعتها تقتضي اللفظ الجزل والأسلوب الرصين والعروض الطويل والصور البدوية، وتعتمد في الهجاء على مثالب الآباء من جبن وبخل وقلة وذلة، وفي المدح والفخر على ذكر أيامهم الدامية الماضية وما ظفر فيها أسلافهم من السب والسلب. فالهجاء في هذا العهد بأنواعه الخاصة والعامة يكاد مظهره العراق، لتَكالب القبائل المتعادية عليه، وظهور المذاهب المتباينة فيه، وغلبة البداوة والأنفة والبط على أهله؛ فشعراؤه يبتدئون به ويفتنون فيه ويعيشون عليه، وهو ينتحل الأسباب المختلفة، ويرتدي الأثواب المتعددة، فيكون شخصياً وقَبَليًّا ووطنيًّا ودينيًّا وسياسياً، ولكنه في الواقع إنما يصدر عن باعث واحد هو العصبية الموروثة والأحقاد القديمة.

وقد ينبت المرعى دَمِنَ الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا

الأخطل:

فقائل هذا البيت غياث بن غوث الأخطل صوت الجزيرة ولسان التغلبيَّة، وأديب النصرانية وشاعر الأموية، كان أول ما غرزم به الشعر الهجاء. هجا امرأة أبيه وهو صغير، وهجا كعب بن جعيل شاعر تغلب فأهمله وهو يافع، وعَلق به لقب الأخطل منذ شبَّ لسفاهته، ثم مضى يقرض الشعر فيما يشجر من الخصومة بينه وبين الناس، أو بين قبيلته وبين القبائل، حتى كان بين يزيد بن معاوية وهو وَليّ العهد وبين عبد الرحمٰن بن حسان الأنصاري تَقاوُل وجدل، فطلب من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار، فتحرج أن يذمّ قوماً آووا رسول اللَّه ونصروه، وقال له: أدلك على الشاعر الفاجر الماهر (يريد الأخطل) فهجا

الأخطل الأنصار بالفلاحة واللؤم والخمر، وفضل عليهم قريشاً في قصيدته الرائية، وكاد يُشفى من ذلك على الخطر لو لا عون يريد. وبالغ الأمويون في إيثاره وإكرامه، وأمعن هو في النفح عليهم، فناضل الزبيريين بعد الأنصار، ووقف للقبائل القيسية فهتك عنها حجاب الشرف قبيلة بقصيدته التي مطلعها:

ألا يـا أسلمي يـا هنـدُ هنـدَ بني بكـر وإن كـان حَيَّانـا عِـدى آخـر الـدهـر

لمناصبتها الأمويين العداء من جهة، ولاقتحامها الجزيرة على قومه من جهة أخرى. ثم ختم حياته بممالأة الفرزدق ومهاجاة جرير. والأخطل وإن كان شديد التمسك بنصرانيته على وثيق صلاته بالخلفاء، لم يشذ عن طبيعة العرب في التدين؛ فقد قال الأب لامنس اليسوعي في فصل كتبه عنه: «إن أثر النصرانية في دين الأخطل ضئيل، ونصرانيته سطحية ككل العقائد الدينية عند البدو»، فهو يُدمن الخمر في حمى الدين، ويكثر الهجاء في حمى الخليفة، ويهاجم القبائل في حمى تَغلب؛ ولكن هجاءه كان عفيف اللفظ لا يركب فيه متن الشطط ولا يتجاوز به حدود الخلق.

الفرزدق:

وأبو فراس همام بن غالب الفرزدق الدارمي ثم التميمي نشأ كذلك بالبصرة على قول الهجاء مع شرف أسرته وغنى قبيلته وعزة نفسه؛ فكان يهجو بني قومه لحدة طبعه وشراسة خُلقه، فيشكونه إلى أبيه فيضربه. ثم لج في هجاء الناس حتى استعْدَوا عليه زياداً والي العرَاق لمعاوية، فطلبه ففرَّ منه في مدن العراق وقبائله ثم لجأ إلى المدنية أخيراً واستجار بواليها سعيد بن العاص من زياد فأجاره. فلما مات زياد عاد الشاعر إلى وطنه فشارك فيما وقع فيه من حروب وفتن بعد موت معاوية ويزيد، حتى مُنِيَ بمهاجاة جرير فشغلت فكره وملأت عمره وصقلت شعره. وظلت هذه المهاجاه أربعين سنة ونيفاً كان منها للناس مشغلة. وللسواس مهزلة. وللأدب العربي ثروة ضخمة من الشعر لا تخلو على سفاهتها وبذاءتها من جمال وحكمة.

جرير:

وكان جرير بن عطية الخطفَى التميمي قد قال الشعر كصاحبيه في الحداثة الباكرة، وقاله مثلهما في الهجاء، ولكنه بدأ بالرجز على نحو ما يكون من الرعاة وهو منهم. وكان خمول عشيرته وضعة أسرته وفقر أبيه وحدة خلقه من العوامل التي ساعدت الطبع على نبوغه في الشعر وتفوقه في الهجاء وكان أول من نازله وأفحمه غسان السّليطي حين هجا قومه، فاستغاث السليطي بالبعيث فأغاثه وهجا جريراً، فنقض جرير قوله بالهجاء اللاذع، فناضل عنه الفرزدق لموجدة في نفسه على جرير وتهاجى الشاعران التميميان من أجل ذلك. وفضّل

الأخطل والفرزدق على جرير إما لدفاعه عن قيس، وإما لرشوة محمد بن عمير إياه، فهجاه جرير. ثم نبحه الهجاء من كل مكان -حتى نصب له من الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعاً إلا الفرزدق والأخطل فإنهما ثبتا له ونازعاه العلبة وآنشعب الناس في أمر جرير والفرزدق شعبتين تناصر كل منهما أحد الشاعرين. وكان بين الفرزدقيين والجريريين ما بين العلويين والأمويين؛ يطلب كل منهم الغلبة لصاحبه بالدعاية والنكاية والرغبة والرهبة والحلف، يقوم الأولون بالمربد والآخرون بمقبرة بني حصن، وقد وقف الشاعران كلٌ بين أتباعه وأشياعه ينشدهم شعره وهم يكتبونه، والرواة ينشرونه؛ والأدباء والأمراء يتناولون ما يروى بالموازنة والنقد والحكم، والأنصارُ يحاولون رشوة الشعراء واستمالة العلماء ليحكموا لصاحبهم على خصمه؛ فقد روى صاحب الأغاني أن أحدهم تبرع بأربعة آلاف درهم وبفرس لمن يفضل الفرزدق على جرير. وليس أدل على اهتمام الناس بأمرهما واختلافهم في الحكم على شعرهما من أن يتهادن الجيشان المتقاتلان ساعة ليحكم أحد الخوارج الأدباء بين رجلين من رجال المهلب تنازعاً في أمر جرير والفرزدق. فقد ذكر ابن سلام أن رجلين تنازعا في عسكر المهلب في جرير والفرزدق وهو بإزاء الخوارج، فصارا إليه فقال لا أقول فيهما شيئاً، وكره أن يعرض نفسه لشرهما، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما: عبيد بن هلال، وهو يومئذ في عسكر قَطَرى بن الفجاءة، فأتيا فوقفا حيال المعسكر فدعواه فخرج يجر رمحه، وظن أنه دُعِيَ إلى المبارزة، فقالا له: آلفرزدق أشعر أم جرير؟ فقال: عليكما وعليهما لعنة اللّه! فقالا: نحب أن تخبرنا ثم نصير إلى ما تريد. فقال من يقول:

وطوى القيادُ مع الطراد بطونها ... طي التِّجار بحضرموت برُودا

قالا: جرير. قال: هو أشعرهما.

وهناك طائفة أخرى من شعراء العراق كعبيد الراعي وأبي النجم العِجلي والراجز اتخذوا من الشعر ظُفُراً ونباً مزقوا بهما الأعراض وأشاعوا هُجر القول في الناس، ولكن أحدهم لم يبلغ من سطوة الشعر ونباهة الذكر ما بلغ جرير والفرزدق والأخطل، لأنهم كما قال أبو عبيدة: «أعطوا حظاً من الشعر لم يعطَه أحد في الإسلام: مدحوا قوماً فرفعوهم، وذموا قوماً فوضعوهم، وهجاهم قوم فردوا عليهم فأنهضوهم، وهجاهم آخرون فرغبوا بأنفسهم عن جوابهم فأسقطوهم».

مذهب الأخطل والفرزدق وجرير في الهجاء:

مذهبهم في الهجاء هو المذهب المتبع والطراز الغالب. على أنهم يتفاوتون فيه تفاوتهم في الطبقة والبيئة والطبع.

فالأخطل سيد في قومه، كريم في نسبه، نبيل في نفسه، يعاقر الخمر ويجالس الملوك ويحترم الدين ويحتمل في سبيله ضرب الأسقف وأذى السجن وإن كان لا يتعبد ولا يتزهد. ومن أجل ذلك كانت لغته في الهجاء كما ذكرنا من قبل لغة الخاصة، لا يسف إلى القبيح ولا يستعين بالمخازي، وإنما يهاجم القِرن في صفات الرجولة فينفي عنه الكرم والبأس والمجد والصدق كقول في تيم:

وكنت إذا لقيت عبيد تيمٍ ... وتيما قلت أيهما العبيد!
لئيم العالمين يسود تيماً ... وسيدهم وإن كرهوا مسود

وكقوله في كليب بن يربوع:

بئس الصحاب وبئس الشّرب شربهم ... إذا جرى فيهم المزّاء والسَّكر
قوم تناهت إليهم كل مخزية ... وكل فاحشة سُبَّت بها مضر
الآكلون خبيث الزاد وحدهُم ... والسائلون بظهر الغيب ما الخبر
وأقسم المجد حقاً لا يحالفهم ... حتى يحالف بطنَ الراحة الشعَر

ولعل أفحش هجائه قوله في قوم جرير:

قوم إذا استنبح الضيفانُ كلبهم ... قالوا لأمهمُ بُولي على النار
فتمنع البول شحاً أن تجود به ... ولا تجود به إلا بمقدار
والخبز كالعنبر الهندي عندهُم ... والقمح خمسون أردباً بدينار

فترى أنه حتى في إقذاعه وإيجاعه لا يتدلى إلى ذكر المثالب الخاصة والمعايب الفردية، وإنما يهاجم قبيلة الخصم كلها فيقايس بينها وبين قبيلته في السمو إلى المعالي والسبق إلى الغايات، وفي ذلك يحد بلاغه ومدده، فلا يضطر اضطرار جرير إلى ذكر الصغائر التماساً للغلبة الدنيئة من أقرب طريق. انظر إلى قوله لجرير:

يا ابن المراغة إن عَمِّيَ اللذا ... قتلا الملوك وفككا الأغلالا
وأخوهم السفاح ظمأ خيله ... حتى وردن جبيَّ الكلاب نهالا
فانعقْ بضأنك يا جرير فإنما ... منتك نفسك في الخلاء ضلالا
منتك نفسك أن تكون كدارم ... أو أن توازي حاجباً وعقالا

وإلى قوله له:

ولقد شددتَ على المراغة سرجها ... حتى نزعت وأنت غير مجيد
وعصرت نطفتها لتدرك دارماً ... هيهات من أمل عليك بعيد
وإذا تعاظمت الأمور لدارم ... طأطأت رأسك عن قبائل صِيد
وإذا عددت بيوت قومك لم تجد ... بيتاً كبيت عطارد ولبيد

فإذا نظرت إلى ذلك وجدت أن هجاءه أقرب ما يكون إلى المنافرة والفخر. ومن الواضح أن هذا الهجاء العفيف المترفع وإن أمضَّ لا يجري مع هجاء جرير في ميدان، ولا يستوي وإياه عند العامة في ميزان، فكيف إذا اجتمع إلى ذلك خمدو الشيخوخة في الأخطل وحدة الشبيبة في جرير؟ إن جريراً نفسه قد علل وناءَ خصمه عنه في آخر الشوط بكبر سنه، فقد قال: «أدركته وله ناب واحد، ولو أدركته وله نابان لأكلني». وقال في قصيدته النونية التي هجا بها الأخطل على أثر تفضيله الفرزدق عليه:

جاريت مُطّلع الرهان بنا بِهِ رَوْقٌ شبيبته وعمرك فان

وإذا استثنينا هجاء الأخطل لجرير وجدنا أشهر أهاجيه إنما قالها في أغراض قومية أو سياسية. ومن تلك الأهاجي المأثورة قصيدتان تلخصان مذهبة وتصوران فنه: الأولى في هجاء القبائل القيسية ومطلعها:

ألا يا أسلمي يا هند هندَ بني بكر وإن كان حيَّانا عِدى آخر الدهر

والأخرى في مدح عبد الملك بن مروان وذم خصومه ومطلعها:

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى في صرفها غِيَرُ

ومنها:

بني أمية إني ناصح لكُم فلا يبيّن منكم آمناً زُفر
فإن مشهده كفر وغائلة وما يُغَيَّب من أخلاقه وعَر
إن العداوة تلقاها وإن كنت كالعُر يكمن حيناً ثم ينتشر
بني أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هُمُ آووا وهم نصروا
وقيسَ عيلان حتى أقبلوا رُقُصاً فبايعوك جهاراً بعد ما كفروا
ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

والأخطل لنصرانيته لم يستطع أن يتخذ من الإسلام سبباً للفخر ولا مادة للهجاء، فاكتفى بذكر مناقب آبائه ومثالب أعدائه. على أنه يستغل أحياناً بعض ما أنكر الإسلام فيهجو به وإن كان هو يستبيحه؛ كقوله في الأنصار يرميهم بشرب الخمر:

قوم إذا هدر العصير رأيتهم حمراً عيونهُم من المسطار

وكقوله في كليب بن يربوع:

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم إذا جرت فيهُم المزَّاء والسَّكَرَ

* * *

أما الفرزدق فهو كالأخطل في الذؤابة من قومه، إلا أنه كان صريح العداوة فلا يواري، فاحش الدعاية فلا يحتشم، شديد الدعارة فلا يتعفف، حاد البادرة فلا يتلطف؛ فهو في

هجائه يذكر العورات، ويعلن المخزيات، بألفاظها العارية وأسمائها الصريحة حتى ليستحي الشاب أن ينشدها، بَلْهَ الفتاة الخفِرة. وما أظن البداوة وضيق الخلق وسلاطة اللسان وفجور النفس هي كل الأسباب التي أوجدت هذا الهجاء السوقي الوقح، فإن الحطيئة ومن سبقه على اتصافهم بهذه الأوصاف لم يسِفوا هذا الإسفاف، فلا بد أن يكون لحياة العراق في ذلك العهد أثر قوي في ذلك. فالخلق العربي القوي قد وهت أواصره باتصال البدو بالحضر واختلاط العرب بالعجم؛ والوازع الديني قد ضعف بتغلب الأحزاب وضعف العصبية؛ والسلطان السياسي يغمض جفنيه، ويضحك مِلء شدقيه، من هذه المهازل التي يمثلها الشعراء والقبائل بالبصرة، أقول القبائل لأن القبيلة كانت من وراء شاعرها تحتال لانتصاره بالمال والقتال والرعاية، وربما يأتي كل رجل منهم بالبيتين والثلاثة فيرفد بها الشاعر كما فعلت تيم في مهاجاة شاعرها عمر بن لجأ لجرير. وكان أفحش الهجاء هجاء الفرزدق في جرير، فهو يرمي قومه بضعة النسب، وضعف الحيلة، واتخاذ الغنم، ورعي الإبل، وإتيان الأتن، ويفتنُّ في هذه المعاني افتناناً عجيباً: يرددها في كل قصيدة على صور مختلفة وأساليب شتى، ولا يتحرج أحياناً من افتعال الحوادث المضحكة إمعاناً في السخر من المهجو والنيل منه. وهذا غاية ما وصل إليه الهجاءون وأهل التنادر في عصور الترف والخلاعة. وأدهى من ذلك أن يقذف خصمه بنوع من السباب الدنيء الذي لا يعتقده هو ولا يصدقه الناس، إنما يعمد إليه مبالغة في التحقير والتشهير على نحو ما يعمل الرعاع في الطبقات الوضيعة، وذلك ما لم نعهده في الهجاء من قبل. إذ كان الشاعر يرى جهة المحاسن في المرء فيمدح، أو جهة المساوىء فيه فيذم، وهو في كلتا الحالين صادق.

وقد يتدلى الفرزدق في الهجاء إلى الدرك الذي لا تسيغه رجولة، فينقص رثاء جرير لامرأته بهجائها المقذع، دون أن يرعى للميت حرمة ولا للمرأة كرامة، كقوله:

كانت منافقة الحياة وموتها ... خزي علانية عليك وعار
فلئن بكيت على الأتان لقد بكى ... جزعاً غداة فراقها الأعيار
تبكي على امرأةٍ وعندك مثلها ... قعساءُ ليس لها عليك خِمار
وليكفينك فقدَ زوجتك التي ... هلكت موقعةُ الظهور قصار
إن الزيارة في الحياة ولا أرى ... ميتاً إذا دخل القبور يُزار

ورأيُ الفرزدق في المرأة يدل على جفاء طبع وسوء أنفة، وربما دل أيضاً على منزلتها في المجتمع العربي في ذلك العهد، ولا نستنبط ذلك من قوله في زوجة جرير فقد يكون للخصومة بعض الأثر في سوئه، وإنما نستنبطه من قوله في زوجته هو حين ماتت:

يقولون زُر حدراء والترب دونها ... وكيف بشيء وصله قد تقطعا
ولست وإن عزت عليَّ بزائر ... تراباً على مرموسه قد تضعضعا

وأهـون مفقـود إذا المـوت نـالـه ... على المـرء في أصحابـه من تقنعـا
يقـول ابن خنـزيـر بكيْتَ ولم تكن ... على امـرأة عيني إخـال لتـدمعـا
وأهـون رزء لامـرىء غيـر عـاجـز ... رزيـة مـرتـج الـروادف أفـرعـا

على أن طبيعة المهاجاة مع جرير، وشهوة الغلبة عند العامة، ونفاد المعاني في الهجاء على طول المدة، وبلادة الحس وهوان النفس باعتياد الذم، قد دعت الفرزدق كما دعت جريراً إلى التدرج في الإقذاع والبذاء، حتى خرج شعرهما في النقائض على قوته وجودته عن الحد المألوف بين السفلة. ولكن الفرزدق مع تبذله كان يصيخ أحياناً إلى وازع الدين لتشيعه فيتوب عن قرض الشعر، ويكف عن هجاء الناس، ويقيد نفسه ليحفظ القرآن ويقول:

ألم تـرني عـاهـدت ربي وأنني ... لَبَيْـنَ رتـاج قـائـمـاً ومـقـام
على قسم لا أشتم الـدهـر مسلمـاً ... ولا خـارجـا من فيَّ سـوء كـلام

أو يستجيب إلى داعي الشرف لحسبه فيصدر في الهجاءِ عن طبع أبيّ ونفس كريمة، فتسمو معانيه وتعف ألفاظه، كقوله في معاوية وقد حبس عنده مالاً لأحد أعمامه بعد وفاته:

أبـوك وعمي يـا مـعـاويَ أورثـا ... تـراثـاً فيحتـاز التـراثَ أقـاربـه
فمـال بال ميـراث الحُتـاتِ أخـذتـه ... وميـراث حـرب جـامـد لـك ذائبـه
فلو كـان هـذا الأمـر في جـاهليـة ... علمتَ منَ المـرء القليـل حـلائبـه

إلى أن يقول:

ومـا ولـدت بـعـد النـبي وأهـله ... كمثلي حصـانٌ في الرجـال يقاربـه
وكم من أب لي يـا معاويَ لم يـزل ... أغـر بباري الـريـح مـا ازورَّ جـانبـه
نَمَتْـهُ فـروع المـالكين ولم يكـن ... أبوك الذي من عبـد شمس يخاطبـه

* * *

أما الطامة الكبرى فهي جرير، لأنه كان مرسَل العنان مطلق اللسان لا يعوقه قيد ولا تكبحه شكيمة. فلا هو صاحب سياسة كالأخطل، ولا صاحب نِحْلة كالفرزدق، ولا وارث مجَادة كالاثنين، وإنما كان سوقيًا تَرْعِيةً رزقه الله حدة الذهن ورقة الأسلوب وخبث اللسان، وزاده الهراش صلابة عود، وغزارة فكر، ومتانة شعر، وسهولة قافية، فبلغ بالهجاء الفردي والقبلي غايته في الإقذاع والإقناع والقوة. وربما كان أول من أكره الشعر على قبول الأساليب العامية المبتذلة في الهجاء كذكر العورات وهتك المحارم، فاضطر خصومه إلى أن يكلموه باصطلاحه، ويقاتلوه بسلاحه، وأصبح بعده الهجاء في العراق لا يفعل في النفوس إلا مشوبًا بهذا القدر. وما مهاجاة بشار وحماد إلا صورة من هجاء جرير والفرزدق.

كان جرير لعاميته وبيئته، ولـلأسباب التي ذكرناها من قبل في معرض الكلام عن الفرزدق، يصطنع في الهجاء أساليب الدهماء، فيعير الأخطل بالقاف والخنزير والسُّكر؛

ويقذف البعيث في أمه وهي أمةٌ سجستانية؛ ويهاجم الفرزدق في جدته فيتهمها بجبير القيْن، وفي أخته جعثن فيرميها بابتذال بني منقر إياها على إثر حادثته مع ظمياء بنت طلبة حفيدة قيس بن عاصم، ويشهر بقومه في إخفار عمرو بن جرموز لذمتهم في قتل الزبير، ثم يتسفط عيوبه الصغيرة وهفواته الدنيا فيجسمها بالمبالغة والتزيُّد، كضربته النابية للرومي، وزيجته القالية من نوار.

وكان الفرزدق يذهب في هجائه مذهب الفخر بآبائه، فيعدد أيامهم الظافرة، ويجدد مفاخرهم الغابرة، فلا يستطيع جرير مجاراته في هذا المضمار، فيعمد إلى نقض الفخر الصلِف بالسخرية اللاذعة والفحش الموجع. وإذا أخذ جرير هذا المأخذ لا يقام له. اقرأ على سبيل المثال قصيدة الفرزدق التي مطلعها:

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتًا دعائمه أعز وأطول

تجدِه يقول بعد هذا البيت:

بيتا زُرارة محتبٍ بفنائه ... ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
لا يحتبي بفناء بيتك مثلهم ... أبداً إذا عُد الفَعال الأفضل

فيجيبه جرير في نقيضته لها:

أخزي الذي سمك السماء مجاشعًا ... وبنى بناءك في الحضيض الأسفل
بيتا يحمم قيْنكم بفنائهِ ... دنسا مقاعدُه خبيث المدخل
قُتل الزبير وأنت عاقدُ حبوةٍ ... تبّاً لحبوتك التي لم تحلل
وافاك غدركَ بالزبير على منًى ... ومَجَرُّ جعثِنِكم بذات الحرمل
بات الفرزدق يستجير لنفسه ... وعِجان جعثن كالطريق المُعمِل

ويقول الفرزدق:

حلل الملوك لباسُنا في أهلنا ... والسابغاتِ إلى الوغى نتسرْبل

فيجيبه جرير:

لا تذكروا حلل الملوك فإنكم ... بعد الزبير كحائض لم تغْسِل

ويقول الفرزدق:

أحلامنا تزن الجبال رزانة ... وتخالنا جنا إذا ما نجهل
فادفع بكفك إن إردت بناءَنا ... ثهلانُ ذو الهضبات هل يتحلحل؟
خالي الذي غصب الملوك نفوسهم ... وإليه كان حِباءَ جفنةً ينقل
إنا لنضرب رأس كل قبيلة ... وأبوك خلف أتانه يتقمل

فيجيبه جرير:

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله ... مثل الذليل يعوذ تحت القرمل
وافخر بضبة إن أُمك منهمُ ... ليس ابن ضبة بالمعم المخول
أبلغ بني وقبان أن حلومهم ... خفتْ فلا يزنون حبة خردل
أذري بحلمهمُ الفياش فأنتمُ ... مثل الفَراش عشين نار المصطلي

ويقول الفرزدق:

وهب القصائدَ لي النوابغُ إذ مضوا ... وأبو يزيد وذو القروح وجرول

ثم يمضي يعدد الشعراء الفحول ويقول:

دفعوا إليَّ كتابهن وصية ... فورثتهن كأنهنَّ الجندل

فيجيبه جرير:

أعددت للشعراء سما ناقعاً ... فسقيت آخرهم بكأس الأول
لما وضعت على الفرزدق ميسمي ... وصغي البَعيث جدعت أنف الأخطل
حسب الفرزدق أن يسب مجاشع ... ويعد شعر مرقش ومهلهل

فأنت تلاحظ أن جريراً يرغب في الطريق السهل، ويطفئُ حرارة الجد ببرودة الهزل، ويقابل الكميّ الهاجم في سلاحه ولأمته، وهو في ثوب المهرج وبزَّته وضحكته.

ولجرير قدرة بارعة على تتبع الخصم في حياتيه الخاصة والعامة، فيتسقط أخباره، ويتلقط حوادثه. ثم يعلنها في شعره تشهيراً به وفضيحة له:

يتزوج الفرزدق من حدراء بنت زيق بن بسطام على حكم أبيها؛ فيقول جرير:

يا زيق قد كنت من شيبان في حسب ... يا زيق ويحك من أنكحت يا زيق
أنكحت ويلك قَينا في استه حمم ... يا زيق ويحك هل بارت بك السوق
يا رُب قائلة بعد البناء بها: ... لا الصهر راض ولا ابن القين معشوق

فيقبل أهلها عليه ويقولون له ماتت، كراهة أن يهتك أعراضهم جرير، فيأبى جرير إلا أن يعلن الحقيقة في قوله:

وأقسم ما ماتت ولكنما التوى ... بحدراء قوم لم يروك لها أهلاً

ويعبث الفرزدق في المدينة عبث الشباب ويعترف بذلك في قوله:

هما دلتاني من ثمانين قامةً ... كما أنقض باز أقتم الريش كاسرهُ

فيقول له جرير:

تدليت تزني من ثمانين قامة ... وقصرت من باع العلا والمكارم

ويضرب الروميّ في حضرة سليمان بن عبد الملك فينبو عنه سيفه فيقول له جرير:

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ومثل هذه الأخبار لطرافتها وجدَّتها تعلق بالنفوس وتسير على الألسنة، كصحف الأحزاب تجعل من حياة خصومها اليومية مادة لجدالها، وموضوعاً لنقدها ونضالها. وجرير لطول ما تمرس بالهجاء وغامر في الخصومة لاذع السخرية، فاحش الدعابة، مر التهكم، ومن ذلك كان يتضور الفرزدق ويمتقع لونه كلما وردت المربد قصيدة لجرير. وأي تهكم أمضّ وآلم من مثل قوله:

يا تَيْمُ إن بيوتكم تيمية قُعس العماد قصيرة الأطناب
قوم إذا حضر الملوكَ وفودُهم نُتِفت شواربهم على الأبواب

وقوله:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع!

وقوله:

والتغلبي إذا تنحنح للقِرى حك استه وتمثل الأمثالا

وقوله:

فَخَلِّ الفخر يا ابن أبي خليد وأدِّ خراج رأسك كل عام
لقد علقت يمينك رأس ثور وما علقت يمينك باللجام

وكأن الهجاء كان في جرير غريزة يرمي الناس عنها لأدنى سبب وعلى غير معرفة، فقد دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدي بن الرقاع العاملي، فقال له الخليفة: أتعرف هذا؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. فقال: هذا رجل من عاملة. قال جرير: التي يقول فيها الله: **﴿عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية﴾**[1]، ثم قال بيتاً قبيحاً ورد عليه عديٌّ بمثله فهجاه جرير بقصيدة منها ذلك البيت المشهور:

وابن اللبون إذا ما لُزَّ في قرَن لم يستطع صولةَ البُزْل القناعيس

ولعل ذلك راجع إلى ميل في طبع أمه إلى هذا الضرب من البذاء والإيذاء فاشتهت أن تراه فيه، حتى صُورت لها تلك الأمنية في الحلم، فرأت وهي حامل به أن حبلاً نزل منها فصار يثب على الناس فيخنقهم واحداً بعد واحد. فلما تأولت رؤياها قيل لها إنك تلدين ولداً يكون شديد الهجاء والبلاء على الناس والشعراء، فسمته لذلك جريراً. وسواءاً أرأت أمه هذه الرؤيا أم افترتها، فقد كان لها ولا ريب أثر قوي في توجيه قريحته منذ طفولته.

---

(١) سورة: الغاشية، الآية: ٣ ـ ٤.

وهجاء جرير على الجملة ضعيف الفخر لبعد مستقاه فيه، وما استطاع الفرزدق أن يعجزه إلا في مشواره، فهو يقول له بحق:

غلبتك بالمفقّأ والمعنَى وبيت المحتبى والخافقات

يريد بالمفقأ أو المفقّىء قوله:

ولست ولو فقأت عينك واجداً أبَا لك إن عد المساعي كدارم

وبالمعنى قوله:

وإنك إن تسعى لتدرك دارماً لأنت المعنَى يا جرير المكلف

وبالمحتبى قوله:

بيتاً زرارة محتب يفنائه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

وبالخافقات قوله:

وأين تُقضَّى المالكات أمورها بحق وأين الخافقات اللوامع

والفرزدق يريد بهذه الأبيات الإشارة إلى القصائد التي تضمنتها وهي من عيون شعره ومتين فخره.

وضعف جرير في الفخر إنما يرجع إلى الموضوع لا إلى الأسلوب، فإنه أجمل خصومه صياغة، وأوفرهم بلاغة، وأرقهم لفظاً، وألطفهم مدخلاً، وأكثرهم افتتاناً. ولسهولة شعره وقلة غريبه نفق عند العامة والشعراء، دون الرواة والعلماء.

وهجاء هؤلاء الأقران الثلاثة إذا استثنينا منه المعاني الجديدة واللهجة الشديدة والتصوير البارع، لم يخرج عن سمت الهجائين الفحول كالمخبل الفريعي، وحسان بن ثابت، والحطيئة، في الابتداء بوصف الطلل والغزل، والاعتماد على المفاخرة والمنافرة، وتلمس العيوب من خبايا الماضي، والانتقال المقتضب من معنى إلى معنى. وأشد ما يعيب هجاء جرير والفرزدق كثرة التكرار، فإن كلا الرجلين إنما يهجو صاحبه بطائفة من الحوادث والصفات ذكرناها من قبل، فلا تراه يعدل عنها، ولا يكاد يزيد عليها، وإنما يرددها في كل قصيدة أو نقيضة في أساليب شتى وقواف مختلفة. فإذا قرأنا لكل واحد منهما واحدة منهن لا يضيرنا بعدنا ألا نقرأ غيرها. كذلك إذا ألممنا بهجاء الأخطل والفرزدق وجرير فقد ألممنا بسائر الهجاء في هذا الطور، لأنه مصوغ من مادته ومضروب على مثاله.

على أن أساليب شعراء العراق في الهجاء الحزبي تختلف عنها في الهجاء الفردي، فبينما هم في هذا لا يترفعون عن الهجو ولا يتورعون عن الكذب تراهم في ذلك يذهبون مذهب الجاهليين، فيفاخرون بالنسب، ويتكاثرون بالعدد والمال، ويؤثرون اللفظ الشريف

والأسلوب العف، بيد أنهم يغلون في الفخر حتى ليجعلونه في الدين والحكم والعلم والموطن.

قال أعشى همدان وهو من أنصار ابن الأشعث:

اكسع البصري إن لاقيته ... إنما يُكسع من قل وذل
واجعل الكوفي في الخيل ولا ... تجعل البصري إلا في النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا ... ما فعلنا بكُم يوم الجمل
بين شيخ خاضب عُثنونه ... وفتى أبيض وضاح رِفْل
جاءنا يخطر في سابغة ... فذبحناه ضحًى ذبح الحمل
وعفونا فنسيتم عفونا ... وكفرتم نعمة الله الأجل

ومن هجائه السياسي الديني قوله مرتجزاً في الحجاج:

شطتْ نوى مَن دارُه بالإيوان ... إيوان كسرى ذي القِرَى والريحان
إن ثقيفاً منهُم الكذابان ... كذابها الماضي وكذابٌ ثان
أمكن ربي من ثقيف همدان ... إنا سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الإيمان ... بالسيد الغِطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالدبي من قحطان ... فقل لحجاج وليِّ الشيطان
يثبت لجمع مذحج وهمدان ... فإنهم ساقوه كأس الذيفان
وملحقوه بقرى ابن مروان

وهذا النوع من الهجاء قليل النفوق والبقاء، كثير النفاق والرياء، لطمع الشعراء في حباء الخلفاء وإيثارهم في الغالب سلامة البدن على سلامة العقيدة. وليس الهجاء الحزبي إلا صورة من صور الشعر السياسي الذي نفق في هذا العصر. وما نزعم بهذه التسمية أن الإسلاميين قد وقعوا على مذهب في الشعر جديد القصد والغاية، فإن مساجلة الخصوم بالشعر كانت مألوفة في عصر الجهالة مشروعة في عهد النبوة؛ إنما نقصد بالشعر السياسي طائفة من المعاني الجديدة استوحتها خواطر الشعراء من اختلاف الأحزاب في الرأي، وتنازع الزعماء على الحكم. جاءت هذه المعاني الجديدة على النهج القديم في صور مختلفة، نستطيع أن نردها إلى أربع:

١ - في صورة المدح المشوب بالتحريض والتعويض كقول أبي العباس الأعمى:

أبني أمية لا أرى لكُم ... شبهاً إذا ما التفَّت الشيعُ
سعة وأحلاما إذا نزعت ... أهل الحلوم فضرَّها النزع
أبني أمية غير أنكُم، ... والناس فيما أطمعوا طمعوا
أطمعتمو فيكم عدوكمو ... فسما بهم في ذاكم الطمع

فلو أنكم كنتم لقومكم مثل الذي كانوا لكم رجعوا
عما كرهتم أو لَرَدهم حذرُ العقوبة، إنها تزع

وكقول الكميت:

بني هاشم رهط النبي فإنني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم مني جناحيّ مودة إلى كنف عِطفاه أهلٌ ومرحب
وأرمِي وأُرمَى بالعداوة أهلها وإني لأوذَى فيهمُ وأؤَنَّبُ

وكفة الأمويين في هذا الباب أرجح، لما تجمع لهم من الترغيب في المال، والترهيب بالملك، والتمليق لهوى النفوس، فمدحهم ونصرهم أكثر الشعراء في عصرهم، إما دفعاً لشرهم، وإما طمعاً في خيرهم، حتى الذين شايعوا خصومهم من الزبيريين والعلويين لم يستطيعوا حبس لعابهم عن عطايا القصر.

٢ ـ وفي صورة الهجاء كمامر، وكما قال أعشى ربيعة لعبد الملك:

آل الزبير من الخلافة كالتي عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حملت ما لا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهمُ كم للغواة أطلتمُ إمهالها
إن الخلافة فيكمو لا فيهمُ ما زلتُم أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلاً مغلقاً فانهض بيُمنك فافتتح أقفالها

٣ ـ وفي صورة اقتراح لسياسة واستطلاع لرأي، كقول مسكين الدرامي، وقد أوعز إليه معاوية أن يقترح البيعة من بعده لابنه يزيد ليعلم رأي قومه في ذلك:.

إليك أمير المؤمنين رحلتها تثير القطا ليلاً وهن هجود
ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيد
بني خلفاء الله مهلاً فإنما يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي خلاه ربُّه فإن أمير المؤمنين يزيد

فلما أتم إنشاده قال له معاوية: تنظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله.

ومثل ذلك حدث من عبد الملك، فقد أراد أن ينقل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد، فأمر النابغة الشيباني أن يقترح ذلك في حضرة الناس فقال:

لابنك أولى بملك والده رنجم من قد عصاك مُطَّرح
داوُد عَدل فاحكم بسيرته تم ابن حَرْب فإنهم نصحوا
وهم خيار فاعمل بسنتهمْ واحيَ بخير واكدح كما كدحوا

فابتسم عبد الملك ولم يتكلم، فعلم الناس أن ذلك أمره.

٤ ـ ثم في صور جدل في رأي أو بيان لمذهب؛ فمن الجدل السياسي ما وقع بين كعب بن جعيل والنجاشي في المفاضلة بين علي ومعاوية، فقد قال كعب:

أرى الشام تكره ملك العرا ... ق وأهل العراق لهم كارهينا
وكل لصاحبه مبغض ... يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا عليٌّ إمام لنا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لهم ... فقلنا لهم لا نرى أن ندينا
وكلٌّ يسر بما عنده ... يرى غث ما في يديه سمينا
وما في عليّ بمستعتب ... ينال سوى ضمه المحدثينا
وليس براض ولا ساخط ... ولا في النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا هو سرّ ... ولا بد من بعد ذا أن يكونا

فلما بلغ ذلك الإمام عليًا أمر النجاشي أن يجيبه فقال:

دَعَنَّ معاوي ما لم يكونا ... لقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم عليٌّ بأهل العراق ... وأهل الحجاز فما تصنعونا؟
يرون الطعان خلال العجاج ... وضرب الفوارس في النقع دينا
همو هزموا الجمع جمع الزبير ... وطلحة والمعشر الناكثينا
فإن يكره القوم ملك العراق ... فقِدْماً رضينا الذى تكرهونا
فقولوا لكعب أخي وائل ... ومن جعل الغث يوماً سمينا:
جعلتم علياً وأشياعه ... نظير ابن هند ألا تستحونا؟

ومن البيان المذهبي قول كثير عزة يشرح عقيدة الشيعة في الإمامة:

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاةَ الحق أربعة سواء:
عليٌّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبطٌ سبط إيمان وبر ... وسبطٌ غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخليل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً ... برضوى عنده عسل وماء

وكقول ثابت قطنة، وهو من شعراء الأمويين، يفصل مذهب الإرجاء:

يا هند فاستمعي لي إن سيرتنا ... أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجي الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الإسلام كلهم ... والمشركون استبوا في دينهم قددا
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً ... في الناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا

إلى أن قال:

كل الخوارج مخطٍ في مقالته ... ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما عليٌ وعثمان فإنهما ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
الله أعلم ما قد يحضران به ... وكل عبد سيلقى الله منفردا

هذه جملة المعاريض التي عرضت بها المعاني السياسية. ولعلك تلاحظ من هذه الأمثلة أنها في الغالب مهلهلة النسج، نابية القافية، بادية التكلف، تشبه من بعض الوجوه نظم المتون في الشعر التعليمي. وعلة ذلك أن اتصالها بالوجدان ضعيف، وأن أكثرها إنما يصدر عن طبع مكده، أو شعور ممالق، أو قريحة كابية. والفرق بين شعر الأخطل والفرزدق وجرير، وبين شعر هؤلاء الذين ذكرنا كالفرق بين من يعبر عن شعوره وحسه، ويدافع عن قبيله ونفسه، وبين من يتصل لسانه بقلب غير قلبه، ويدفعه طمعه إلى ممالأة حزب غير حزبه.

على أن من شعراء الأحزاب من قالوا الشعر عن عقائد دينية، وعواطف نفسية، ونوازع عصبية، فكان لشعرهم جمال الإخلاص وروعة اليقين وقوة الحقيقة، أولئك هم شعراء الشيعة والخوارج. فحق علينا ونحن في مقام البحث في شعراء العراق أن نديم النظر ساعة في أشعارهم، لنستشف من خلالها صور مذاهبهم وأفكارهم.

شعر الشيعة:

ورث عليّ بن أبي طالب بحكم مولده ومَرْباه مناقب النبوة، ومواهب الرسالة، وبلاغة الوحي، وصراحة المؤمن، وبسالة المجاهد، فأجمع الناس على إجلاله وكادوا يطبقون على حبه. حتى من كتب عنه من الأوربيين قد شاركوا المسلمين في هذه العاطفة؛ فقد قال فيه الكاتب الإنجليزي كارليل: «أما ذلك الفتى علي فلا يسعك إلا أن تحبه. ركب الله في طبعه النبل منذ الحداثة، وتجلى في خلاله الكرم طوال عمره، ثم طبعه على العمل ونفاذ الهمة وصراحة البأس، وآتاه سر الفروسية وجرأة الليث، وكل أولئك في رقة قلب وصدق إيمان وكرم فعال تليق بالفروسية المسيحية». ثم سار عليّ في خصومته وخلافته وسياسته عَلَى ضوء هذه الأخلاق، فما قارف الأثرة، ولا حاول الفرقة، ولا راقب الفرصة، ولا أثار العصبية، ولا استخدام المال، وإنما أخلص النية للعمرين، ومحض النصيحة لعثمان، وأعذر بالحجة لمعاوية. ولكن دنيا الفتوح كانت قد أخذت عَلَى عهده تتجاهل دين البساطة والزهد. ولم تعد السياسة الدينية وحدها قادرة على كبح النفوس المفتونة بمال معاوية في الشام، وثراء الرافدين في العراق، فانتشر أمره وانصعدت خلافته ثم قتل مظلومًا في محرابه؛ فكان محياه ومماته تاريخًا داميًا للفصيلة المعذبة والنفس المطمئنة الشهيدة. ثم وَرَّث بنيه وأهليه ذلك

العزم الثائر وهذا المجد الثائر، فدب الموت للحسن سرًا في كأس مذعوفة، وقتل الحسين قِتْلةَ لا يزال يرعد من هولها الدهر.

وتلاحقت الفواجع الأموية فصرع زيد وقتل يحيى، وافتَنَّت المنايا الرواصد في اختلاج بني عليّ، وهم يقابلون هول الغوائل الظاهرة والباطنة بالشجاعة والصبر والاحتساب، حتى أسفرت حول وجوههم طفاوة من التنزيه والتقديس وتخللت محبتهم قلوب المسلمين، ولا سيما الشيعة، فإن ندمهم على خذلانهم إياهم، وألمهم لما رأوا من اضطهادهم وأذاهم، رفعا في نفوسهم ذلك الحب حتى أشرفا به على مقام العبادة. ثم ظهر ذلك الحب في صور من العقائد: فقالوا بالوصية، وجعلوا الإمامة من أصول الدين، وحصروها في عليّ وبنيه، وطعنوا في إمامة الشيخين. ولم يتهيأ لهم السلطان، ولم تسعفهم القدرة، فاعتمدوا على استمالة القلوب وترقيقها بالبكاء والندب، وتصوير الآلام، وإعلان الفضائل، فاصطبغ شعرهم بالحزن العميق، والرثاء النائح، والمدح المبتهل، والعصبية الحاقدة. على أن هذه الخصائص لم تكن واضحة في شعر أوائل الشيعة وضوحَها في شعر الأواخر منهم؛ فإنَّ تغلغل الفكرة في أصل العقيدة، وتنكيل الحاكمين بآل البيت، واضطهاد الولاة للشيعة، إنما تدرجت قسوةً وقوة مع الزمن، فضلاً عن قلة شعراء الشيعة في هذا العصر لإفساد الأمويين الضمائر بالحديد والذهب، فشعرهم بدأ ولاء صادقًا، ومدحاً خالصاً، وهجاء مراً، ثم اشتد فصار مفاضلة جريئة، ومعارضة شديدة، ومناقشة فقهية، ودعاية حزبية. ولعل ذلك يتجلى لك فيما ذكرناه وفيما سنذكره من الأمثلة. فمن التعبير عن العاطفة القوية الساذجة قول أبي الأسود الدؤلي:

يقول الأرذلون بنو قشير ... طوال الدهر لا تنسى عليا!
بنو عبد النبي وأقربوه ... أحَبُّ الناس كلهم إليَّا
أحبهم كحب الله حتى ... أجيء إذا بُعثت على هَوَيا
فإن يك حبهم رشداً أُصِبْهُ ... ولست بمخطىء إن كان غيّا

ومن المدح والمفاضلة قول أيمن بن خزيم الأسدي:

نهاركمُ مكابدة وصوم ... وليلكمُ صلاةٌ واقتراء
أأجمعكم وأقواماً سواءَ ... وبينكُمُ وبينهمُ الهواء؟
وهم أرض لأرجلكم وأنتم ... لِأرْؤسهم وأعينهمْ سماء

ومن الهجاء قول ابن مفرغ الحميري:

ألا أبلغ معاوية بن صخر ... مغلغلة من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ ... وترضى أن يقال أبوك زاني؟
فأشهد إن رحمك من زياد ... كرحم الفيل من ولد الأتان

وأشهد أنها ولدت زياداً وصخر من سُمَيَّة غير داني

وقول عبد الله بن هشام السلولي في يزيد بن معاوية:

حُشِينا الغيظ حتى لو شربنا دماء بني أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الأرانب غافلينا

ومن المناقشة الجدلية قول الكميت في الخلافة:

يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شَرَكت فيه بجيل وأرحب
ولا انتشلت عضوين منها يُحابرُ وكان لعبد القيس عضو مؤرَّب
فإن هي لم تصلح لحي سواهمُ إذن فذوو القربى أحق وأقرب
فيالك أمراً قد تشتَّتْ جمعهُ وداراً ترى أسبابها تتقضب
تبدلت الأشرار بعد خيارها وجُدَّ بها من أمة وهي تلعب!

ويكاد الكميت بن زيدالأسدي بقصائده الهاشميات يكون الشاعر الفذ لبني هاشم؛ فقد مدحهم واحتج لهم ودافع عنهم بلسان صادق واعتقاد خالص ونفس جريئه وقريحة سمحة. ولما أهدر هشام بن عبد الملك دمه لجأ على ما أُرجح إلى التقيَّة في شعره على عادة الشيعة، فقال من كلمة يمدحه فيها.

فالآن صرتُ إلى أميَّة والأمور إلى المصاير
يا ابن العقائل للعقا ئل والحجاجحة الأخاير
من عبد شمس والأكا بر من أمية فالأكابر
لكم الخلافة والإلا ف برغم ذي حسد وواغر

ومهما يقل الكميت فإن عاطفة شعراء الشيعة ستظل كما قلنا مكظومة بالطمع والخوف حتى تنبجس في عهد بني العباس نفثات غيظ، وحسرات حزن، وعبرات ألم في شعر السيد الحميري، ، ودعبل الخزاعي، وديك الجن، ومطيع بن إياس، وأبي الشيص، والعَكَوَّك، وأضرابهم.

شعر الخوارج:

وأما الخوارج ـ وجمهرتهم من البدو الجفاة والسذج ـ فقد قام أمرهم على الصلابة في الرأي، والمكابرة في القول، والاشتطاط في الحكم، والتشدد في الدين، والغلو في العبادة، والقسوة في المعاملة، والاعتماد على الحرب. شايعوا عليّا وآزروه حتى قبل التحكيم، فقالوا له: حَكَّمتَ الرجال ولا حكم إلا لله! ثم خرجوا عليه وأبو أن يرجعوا إليه إلا إذا أقر على نفسه بالكفر، ونقض ما عاهد معاوية عليه. فأبى عليهم ما سألوا، وأوقع بهم يوم النهروان، فزاد ذلك في حنقهم عليه وخلافهم له، فائتمروا به واغتالوه. واستعرضوا أعمال

الخلفاء وعقائد الناس، فخطَّأوا بعضاً وكفَّروا بعضاً. ثم ذهبوا إلى أن الخلافة تصح في غير قريش وفي غير العرب، وأن العمل جزء من الإيمان، فحرصوا كل الحرص على أداء الشعائر واجتناب الكبائر، ولاذوا بكور الجبال يدعون جهراً إلى مذهبهم دون مواربة ولا تقية ولا هوادة؛ فكانوا في الدين كما قال صاحبهم أبو حمزة الشاري: «أنضاء عبادة وأطلاح سهر. قد أكلت الأرض أطرافهم، واستقلوا ذلك في جنب الله. فإذا كان الجهاد ورعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ومضى الشاب منهم قُدُماً حتى اختلفت رجلاه في عنق فرسه، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه، فإذا أنفذه الرمح جعل يسعى إلى قاتله ويقول: «وعجلت إليكَ ربِّ لترضى».

وكانوا مع هذا الورع الشديد والخشية البالغة يقسون على مخالفيهم، فلا يرحمون ضعف المرأة، ولا براءة الطفل، ولا شيخوخة الهرم، ولا وشائج الرحم؛ لأنهم ـ كما ظنوا ـ باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة، فقطعوا أسباب الحياة، وأماتوا عواطف الدنيا، وقاتلوا وقتلوا في سبيل هذا المذهب وتلك الغاية، وهم لصراحة بداوتهم، وشدة عصبيتهم، وخلوص عقيدتهم. وما تقتضيه دعوتهم من إدمان الحجاج والمناظرة أساس الناس منطقًا، وأروعهم كلامًا، وأمتنهم شعراً. ولكن الشعر كان عندهم في المحل الثاني من الخطابة، لقيام أمرهم على الإقناع والجدل بآيات الله وأحاديث الرسول؛ وغناء الشعر في ذلك قليل. فإذا ما برز الخارجي للخصم، أو هجم على الموت، أو وقع في الأسر، جاشت نفسه بمتين الرجز، أو رصين القصيد، يضمنه وصفه للحرب، وولهه للقتال، وزهده في الحياة، واستخفافه بالموت، وشوقه إلى الشهادة، وظمأه إلى الجنة، في لفظ جزل وأسلوب قوي، وقلما يدور شعرهم على غير ذلك. فمن الرجز قول ابن أم حكيم:

أحمل رأساً قد سئمت حمله ... وقد مللت دهنه وغسله
ألاَ فتى يحمل عني ثقله!

ومن القصيد قول معاذ بن جوين يحرض قومه وهو أسير:

ألا أيها الشارون قد حان لامرىء ... شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة ... وكل امرىء منكم يصاد ليُقتلا
فشدوا على القوم العداة فإنها ... أقامتكمُ للذبح رأيا مضللا
ألاَ فاقصدوا يا قوم للغاية التي ... إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فيا ليتني فيكم على ظهر سابح ... شديد القُصيرى دارعاً غير أعزلا
فيا رُب جمع قد فللت، وغارة ... شهت، وقِرْنٍ قد تركت مجندلا

وقول الطرماح بن حكيم:

لقد شقيْتُ شقاءً لا انقطاع له ... إن لم أفز فوزة تنجي من النار

والنار لم ينجُ من لهيبها أحد ... إلا المنيبُ بقلب المخلص الشاري
أو الذي سبقت من قبل مولده ... له السعادة من خلاقها الباري

وقوله:

وأمسي شهيدًا ثاوياً في عصابة ... يصابون في فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم ... تُقى الله نزالون عند الزواحف
إذا فارقوا دنياهمو فارقوا الأذى ... وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف

وكقول قَطَري بن الفجاءة في يوم دولاب:

فلم أرَ يوما كان أكثر مَقْصعاً ... يمج دماً من فائظ وكليم
وضاربة خداً كريماً على فتى ... أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطناً ... له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

وقليلاً ما يجادل الخوارج بالشعر ويقارعون بالهجاء، لاعتمادهم في الجدل على الخطابة، وفي القراع على السيف. ومن هذا القليل قول بعضهم في الجدل وقد هزم أربعون منهم ألفين لابن زياد:

أألفا مؤمن فيما زعمتم ... ويقتلكم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم ... على الفئة الكثيرة ينصرونا

وقول عمران بن حطان في هجاء الإمام:

لله در المرادي الذي سفكت ... كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشاه بضربته ... مما جناه من الآثام عُريانا

وما حمله على ذلك إلا أنه من القَعَدة لضعفه عن الحرب لكَبر سنه فجاهد بلسانه.

نماذج من الشعر الأموي

قال قَطَريُّ بن الفجاءة:

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويْحك لن تراعي
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجلِ الذي لك لم تُطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً ... فما نيلُ الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز ... فيُطْوَى عن أخي الخنْع اليراع

سبيل الموت غايةُ كل حي ... فداعيه لأهل الأرض داع
ومن لا يُعتَبطْ يسأم ويهرمْ ... وتُسلمْه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خيرٌ في حياة ... إذا ما عدَّ من سَقَط المتاع

وقال عبد اللَّه بن قيس الرُّقيات في قريش:

حبذا العيش حين قومي جميعٌ ... لم تفرق أمورها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل في مل ... ك قريش وتشمت الأعداء
أيها المشتهي فناء قريش ... بيد اللَّه عمرها والفناء
إن تودع من البلاد قريش ... لا يكن بعدهم لحي بقاء

وقال الحطيئة يمدح بغيض بن لأي:

تزور امرأً يؤتي على الحمد مالَه ... ومن يُؤت أثمان المحامد يُحمَد
يرى البخل لا يُبقي على المرء ماله ... ويعلم أن البخل غيرُ مخلِّد
كسوب ومِتلاف إذا ما سألته ... تهلل فاهتز اهتزاز المهند
متى تأته تعشو إلى ضوء ناره ... تجد خير نار عندها خيرَ مُوقِد

وقالت الخنساءُ:

دلّ على معروفه وجهه ... بُورِك هذا هادياً من دليل
تحسبهُ غضبان من عزه ... ذلك منه خُلق ما يحول
وَيْلُمِّه مِسْعَرَ حرب إذا ... أُلقِي فيها وعليه الشليل!

وقال الكُمَيت الأسدي يمدح مسلمة بن عبد الملك:

فما غاب عن حِلم ولا شهد الخنا ... ولا استعذب العوراء يوماً فقالها
وتَفْضُل أيمانَ الرجال شمالُه ... كما فَضَلتْ يمنى يديه شمالَها
وما أجِمَ المعروف من كرِّه ... وأمراً بأفعال الندى وافتعالَها
ويبتدل النفس المصونة نفسه ... إذا ما رأى حقاً ابتذالها
بلوناك في أهل الندى ففضلتهم ... وباعك في الأبواع قِدماً فطالها
فأنت الندي فيما ينوبك والسُّدَى ... إذا الخود عدَّتْ عُقْبَة القِدر مالها

وقالت ليلى الأخيلية ترثي توبة:

لعمرك بالموت عارٌ على الفتى ... إذا لم تصبه في الحياة المعاير
وما أحد حَيٌّ وإن عاش سالماً ... بأخلد ممن غيبته المقابر
فلا الحي مما أحدث الدهرُ مُعْتَبٌ ... ولا الميْت إن لم يصبر الحيُّ ناشر
وكل جديد أو شباب إلى بِلىً ... وكل امرىء يوماً إلى الموت صائر
وكل قريني ألفة لِتفرق ... ستاتاً وإن ضَناً وطال التعاشر
فلا يُبْعِدَنْكَ اللَّه يا توب هالكاً ... أخا الحرب إن دارت عليك الدوائر

فآليت لا أنفك أبكيك ما دعت ... على فننٍ ورقاءُ أو طار طائر

وقال أبو ذؤيب الهُذَلي يرثي بنيه الخمسة وقد هاجروا إلى مصر فهلكوا في عام واحد:

أمِن المنون وريبها تتوجع ... والدهر ليس بمعْتِب من يجزع؟
قالتْ أمامة ما لِجسمك شاحباً ... منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع
فأجبتها إرثي لجسمي إنه ... أودي بَنيَّ من البلاد فودعوا
أودى بَنيَّ فأعقبوني حسرة ... عند الرقاد وعَبرة لا تقلع
فالعين بعدهُم كأن حِداقها ... كحلت بشوك فهي عَورا تدمع
فغبرت بعدهم بعيش ناصب ... وإخال أني لا حق مستتبع
سبقوا هَوَيّ وأعنقوا لهواهمُ ... فتُخُرِّموا ولكل جنب مصرع
ولد حرصت بأن أدافع عنهمُ ... وإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع
وتجلدي للشامتين أريهمُ ... أني لريب الدهر لا أتضعضع
حتى كأني للحوادث مَرْوَة ... بصفا المشرق كل يوم تقرع

وقال جرير يرثي ابنه:

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم ... كيف العزاء وقد فارقت أشبالي
فارقتني حين كف الدهر من بصري ... وحين صرت كعظم الرمة البالي

وقال مالك بن أسماء في الهجاء:

لو كنت أحمل خمراً يوم زرتكم ... لم ينكر الكلب أني صاحب الدار
لكن أتيت وريح المسك يَفْغمني ... وعنبر الهند أذكيه على النار
فأنكر الكلب ريحي حين أبصرني ... وكان يعرف ريح الزق والقار

وقال آخر.

أقول حين أرى كعباً ولحيتَه ... لا بارك اللّه في بضع وستين
من السنين تولاها بلا حسب ... ولا حياء ولا قدر ولا دين

وقال عبد الرحمن بن الحكم:

لحا اللّه قيساً قيسَ عيلان إنها ... أضاعت ثغور المسلمين وَوَلت
فشاولْ بقيس في الطعان ولا تكن ... أخاها إذا ما المشرفيةُ سُلَّت

وقال الطرِمَّاح يهجو بني تميم:

تميم بطرْق اللؤم أهدى من القطا ... ولو سلكت سُبل المكارم ضلَّت
ولو أن برغوثاً عَلَى ظهر نملة ... يكر على صفي تميم لولت

وقال حندج بن حندح المري يصف ليل صول:

في ليل صُول تناهى العرض والطول ... كأنما ليلُه بالليل موصول

لا فارق الصبحَ كفي إن ظفرت به ... وإن بدت غُرَّةٌ منه وتحجيل
لِساهر طال في صول تململهُ ... كأنه حية بالسوط مقتول
متى أرى الصبحَ قد لاحت مخايلهُ ... والليلَ قد مُزِّقت عنه السراويل
ليل تحير ما ينحط في جهة ... كأنه فوق متن الأرض مشكول
نجومه رُكَّدٌ ليست بزائلة ... كأنما هن في الجو القناديل
ما أقدَرَ اللَّه أنْ يدني عَلَى شَحَطٍ ... مَن دارُه الحَزنُ مُمن داره صول!
اللَّه يطوي بساط الأرض بينهُمَا ... حتى يُرى الرُّبعُ منه وهو مأهُول

وقالت الخنساء تصف سباقاً كان بين أبيها وأخيها:

جارى أباه فأقبلا وهُما ... يتعاوَرَان مُلاءَة الحضْر
حتى إذا نزَت القلوب وقد ... لزت هناك العذر بالعذر
وعلا هتاف الناس أيهما؟ ... قال المجيب هناك لا أدري
برزتْ صحيفة وجه والده ... ومضى عَلَى غُلوائه يجري
أولى فأولى أن يساويه ... لولا جلال السن والكبر
وهما وقدْ برزا كأنهما ... صقران قدْ حطَّ إلى وكر

وقال الفرزدق يصف ذئبًا صادفه أثناء سفره فأطعمه من زاده:

وأطلسَ عسال وما كان صاحباً ... دعوت لناري مَوهِناً فأتاني
فلما أتى قلت أدن دونك إنني ... وإياك في زادي لمشتركان
فبت أقُدُّ الزاد بيني وبينه ... على ضوء نار مرّة ودخان
وقلت له لما تكشر ضاحكاً ... وقائم سيفي من يدي بمكان
تعشَّ فإن عاهدتني لا تخونني ... نكن مثل من يا ذئبُ يصطحبان
وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما ... أخيَّين كانا أُرضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القِرى ... رماك بسهم أو شَبَاة سنان

وقال بعض الحجازيين يصف حال امرأته عندما علمت بزواجه من غيرها:

خبروها بأنني قد تزوجـ ... ـت فظلت تكاتم الغيظَ سرًّا
ثم قالت لأختها ولأخرى ... جزعاً: ليته تزوج عشرا!
وأشارت إلى نساء لديها ... لا ترى دونهن للسر ستراً:
ما لقلبي كأنه ليس مني ... وعظامي كأن فيهن فَتراً؟
من حديث نما إليَّ فظيعٍ ... خِلْتُ في القلب من تلظيه حمراً

وقال عروة بن أذينة في الغزل:

إن التي زعمت فؤادك ملَّها ... خلقت هواك كما خُلقت هوىً لها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها ... بِلبَاقةٍ فأدقها وأجلَّها

حجبت تحيتها فقلت لصاحبي : ما كان أكثرها لنا وأقلَّها!
وإذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الضميرُ إلى الفؤاد فسلَّها

وقال جميل بن معمر :

وإني لأرضى من بُثَيْنَةَ بالذي لو أبصره الواشي لقرتْ بلابله
بلا، وبألا أستطيع، وبالمنى، وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله
وبالنظرة العَجْلى، وبالحول تنقضي أواخره لا نلتقي وأوائله

وقال أيضاً :

ما زُلتمُ يا بثن حتى لو أنني من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
إذا خَدِرتْ رجلي وقيل شفاؤها دعاء حبيب كنت أنت دعائيا
وما زادني النأيُ المفرِّق بعدكم سلوًا ولا طولُ التلاقي تقاليا
ولا زادني الواشون إلا صبابة ولا كثرة الناهين إلا تماديا
لقد خفت أن ألقى المنية بغتة وفي النفس حاجات إليك كما هيا

وقال يزيد بن الطَّثَرِيَّة :

بنفسي من لو مر نَرَد بنانه على كبدي كانت شفاءَ أنامله
ومن هابني في كل أمر وَهِبْتُه فلا هو يعطيني ولا أنا سائله

وقال قيس بن ذَريح :

فإن يحجبوها أو يَحُلْ دون وصلها مقالة واش أو وعيد أمير
فلم يمنعوا عينيَّ من دائم البكا ولم يذهبوا ما قد أجن ضميري

وقال كُثيّر من قصيدة يذكر فيها هجران عزة وسلوانه :

وما كنت أدري قبل عَزَّة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولتِ
وكانت لقطع الحبل بيني وبينها كناذرةٍ نذراً فأوفت وحلت
ولم يلق إنسان من الحب ميْعةً نعُم ولا غماء إلا تجلَّت
أريد الثَّواء عندها وأظنها إذا ما أطلْنا عندها المكثَ ملت
فما أنصفت، أما النساء فبغَّضت إليَّ، وأما بالنوال فضنت
يكلفها الغَيْرَانُ شتمي وما بها هواني، ولكن للمليك استذلت
هنيئاً مريئاً غيرَ داءٍ مُخَامرٍ لعزة من أعراضنا ما استحلت
فواللَّه ما قاربت إلا تباعدت بهجر ولا أكثرت إلا أقلت
فإن تكن العُتَبى فأهلاً ومرحباً وحقَّت لها العتبى لدينا وقلَّتِ
وإن تكن الأخرى فإن وراءنا منادحَ لو سارت بها العيسُ كَلَّتِ
أسيئي بنا أو أحسني لا مَلُومَة لدينا ولا مَقْلِيه إن تقلَّت
فما أنا بالداعي لعزة بالجوى ولا شامت أن نعلُ عزة زلت

فلا يحسب الواشون أن صبابتي ... بعزة كانت غمرة فتجلت
فواللَّه ثم اللَّه ما حل قبلها ... ولا بعدها من خُلَّةٍ حيث حلَّتِ
فيا عجبًا للقلب كيف اعترافه ... وللنفس لما وُطِّنت كيف ذلت!
وإني وتَهيامي بعزةَ بعدما ... تَخَلَيْتُ مما بيننا وتخَلت
لكالمرتجى ظلَّ الغمامة كلما ... تبوأ منها للمقيل اضمحلتِ
فإن سأل الواشون فيمَ هجرتها ... فقالُ نفسُ حسر سُلِّيَتْ فتسلت

وقال جرير على لسان يزيد:

فأنت أبي ما لم تكن لي حاجةٌ ... فإن عرضت أيقنت أن لا أبَاليا
وإني لمغرور أعلِّلُ بالمنى ... ليالِيَ أرجو أن مالك ماليا
بأي نجادٍ تحمل السيف بعدما ... قطعت القوى من محمل كان باقيا؟
بأي سنان تطعن القوم بعدما ... نزعت سناناً من قناتك ماضيا؟

وقال مالك ابن أسماء يعتذر:

لكل جواد عثرة يستقيلها ... وعثرة مثلي لا تقال مدى الدهر
فهبنيَ يا حجاج أخطأت مرة ... وجُرت عن المثلى وغنيتُ بالشعر
فهل لي إذا ما تبت عندك توبة ... تدارِك ما قد فات في سالف العمر؟

وقال الحطيئة:

أتتني لسان فكذبتها ... وما كنت أحسبها أن تُقالا
بأن الوشاة بلا حُرمة ... أتوك فراموا لديك المحالا
فجئتك معتذراً راجياً ... لعفوك أرهب منك النكالا
فلا تسمعنْ بي مقال العدى ... ولا تؤكِلَّني هُدِيتَ الرجالا
فإنك خير من الزبرقان ... أشد نكالاً وخير نوالا

وقال حسان بن ثابت:

المال يَغشى رجالاً لا طَبَاخ بهم ... كالسيل يغشى أصولَ الدندن البالي
أصون عرضي بمالي أدنسه ... لا بارك اللَّه بعد العرض في المال
أحتال للمال إن أوْدى فأجمعه ... ولست للعرض إن أودى بمحتال
الفقرُ يزْري بأقوام ذوى حسب ... ويقتدى بلئام الأصل أنذال

وقال كُثَيِّر:

ومن لا يُغَمِّض عينه عن صديقه ... وعن بعض ما فيه يمتْ وهو عاتب
ومن يتتبَّعْ جاهداً كل عثرة ... يجدْها ولا يسلمْ الدهرَ صاحب

وقال كعب بن زهير:

لوْ كنت أعجب منْ شيىءٍ لأعجبني ... سَعيُ الفتى وهو مخبوء لهُ القَدَرُ

يسعى الفتى لأمور ليس يدركها ... والنفس واحدة والهمُّ منتشرُ
فالمرءُ ما عاشَ ممدودٌ له أَمَل ... لا ينتهي العمر حتى ينتهي الأثر

وقال النابغة الجعدي:

ولا خير في حِلم إذا لم تكن له ... بوادرُ تحمى صفوه أن يكدَّرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمرَ أصدرا

الشعراء وطبقاتهم

نبغ في هذا العصر على قِصره زُهاءُ مائة شاعر كان لهم السهم الربيح في نهضة العرب الدينية والسياسية والاجتماعية، لقوة الدِّعاية في الشعر، وتأثير الفصاحة في العرب، وشدة العصبية في الولاة. وشعرهم وإن سار على منهاج الجاهلية أسمى خيالاً وأقرب منالاً وأوثق مبنى وأغزر معنى من المتقدمين؛ لتأثرهم بالدين والحضارة كما علمت. وهم إما مخضرمون ككعب بن زهير والخنساء وحسان بن ثابت والحطيئة، وإما إسلاميون كعمر بن أبي ربيعة والأخطل وجرير والفرزدق والكُمَيت والطِّرِمَّاح وكُثيِّر وذي الرُّمة. وكلهم صريح العربية، صحيح اللغة، فصيح اللهجة، في الشعر والنحو حُجَّة.

وأشهر هؤلاء الشعراء كما ذكرنا من قبل ثلاثة مُنُوا بداء السياسة، وشهوة المنافسة، فمزقوا ستائرهم وفرقوا عشائرهم، وأشاعوا هُجر القول في الناس، ولم يتعرض لهم أحد إلا افتُضح؛ وهم جرير والفرزدق والأخطل. وقد انقطعوا للشعر والتكسب به، والتف حول كل منهم طائفة تفتخر به وتنتصر له. ويكاد الناس لا يختلفون إلا فيهم، ولا يعقدون التفاضل إلا بينهم.

الشعراء المخضرمون

١٤ ـ كعب بن زهير

٠٠٠ ـ ٦٤٥ م

٠٠٠ ـ ٢٦ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو عقبة كعبُ بنُ زُهَيْر بن أبي سلمى المُزَني. نشَّأه أبوه على الأدب والحكمة

---

١٤ ـ انظر ترجمته في: السيرة، لابن هشام، والأغاني: ١٧/٨٢ ـ ٩١، ومعجم الشعراء: ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣، والموشح: ص ٤٦، ٨١، وسمط اللآلىء: ص ٤٢١، والإصابة: =

فشَبَّ فصيحاً شاعراً، ولما ظهر الإسلام خرج هو وأخوه بُجير إلى رسول اللَّه ﷺ، ثم بدا له فتأخر وتقدم بُجير، فسمع كلام رسول اللَّه وأسلم. فغضب كعب لإسلامه ونهاه، وهجاه وهجا رسول اللَّه معه بأبيات يقول فيها:

ألا أبلغا عني بجيراً رسالةً ... فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا؟
سفاك بها المأمون كأساً رَوِيَّةً ... فأنهلك المأمون منها وعَلَّكا
ففارَقت أسباب الهدى واتبعته ... على أيِّ شيء وَيْبَ غَيرك دلكا
على مذهب لم تُلِف أُمًّا ولا أَبَا ... عليه وَلم تعرف عليه أخا لكا
فإنْ أنتَ لم تفعلْ فلستَ بآسف ... ولا قائل إما عثرتَ لَعاً لكا!

فأهدر الرسول دمه، وأرجف الناس بقتله. وأشفق عليه أخوه فنصحه بالإسلام والتوبة والمثول بين يدي الرسول يطلب رضاه وعفوه. فلما استيأس كعب من المجير والنصير جاء إلى المدينة، وتوسل بأبي بكر إلى الرسول. ودخل في الإسلام، ومدحه بلاميته المشهورة، فعفا عنه وأمَّنه وخلع عليه بُردَته؛ فما زالَتْ في أهله حتى اشتراها معاوية منهم بأربعين ألف درهم، وتوارثها الخلفاء الأمويون فالعباسيون حتى آلت مع الخلافة إلى بني عثمان.

شعره:

نشأ كعب في روضة الشعر وباحة القريض فرسخت فيه مَلَكته، وتجلت في صغره شاعريته. فأخذ يقرضه وهو دون المراهقة. فنهاه أبوه مخافة أن يروَى عنه ما لا خير فيه فيلزمه عاره. فكان كعب يأبى أن ينتهي، ويلح أبوه في منعه حتى امتحنه امتحاناً شديداً طمأنه على نضج قريحته وسلامة طبعه؛ فتركه لنفسه فتقحم أبوابه، وسلك شعابه، وأتى منه بالجيد الرصين والرائق المعجب. وأوشك أن يسامي أباه لو لا غرابة في ألفاظه، وتعقيد في تراكيبه، وقصور في مطوَّلاته؛ ومن كل ذلك برىء أبوه. ومما يدل على مكانه كعب وقيمة شعره أن الحطيئة وهو من نابهي الشعراء توسل إليه أن ينوِّه بذكره في شعره حتى يشتهر، فقال:

فَمنْ للقوافي شانها من يحوكها ... إذا ما مضى كعب وفَوَّز جرْول
كفيتك لا تلقى من الناس واحداً ... تَنَخَّل منها مثل ما نتَخَّل

نموذج من شعره:

من عيون شعره مشَوبته التي مدح بها الرسول، ومطلعها:

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبول ... مُتَيَّمٌ إثْرها لم يُفْدَ مكبول

= ٥٩٢/٣ ـ ٥٩٥، وخزانة الأدب: ١١/٤ ـ ١٢، ومعجم المؤلفين: ١٤٤/٨، ودائرة المعارف الإسلامية، ٨٣٠/١، ٦٢٤/٢ ـ ٦٢٥.

ومنها:

وقال كلٌّ خليل كنت آمله ... لا أُلهينَك إني عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلي لا أبالكمُ ... فكلِ ما قدَّر الرحمٰن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالَتْ سلامتهُ ... يوماً على آلة حدباء محمول
أنبئت أن رسول اللَّه أوعدني ... والوعد عند رسول اللَّه مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم ... أذنب وقد كَثُرت فيّ الأقاويل

ومن قوله:

السامع الذم شريك له ... وَمُطعم المأكول كالآكل
مقالة السوء إلى أهلها ... أسرع من منْحَدر سائل
ومَن دعا الناس إلى ذمه ... ذموه بالحقّ وبالباطل

١٥ ـ الخنساء

٠٠٠ ـ ٦٤٥ م

٠٠٠ ـ ٢٤ هـ

حياتها:

هي السيدة تُماضِر بنت عمرو بن الشريد السُّلمية. والخَنْسَاء لقب غلب عليها: نبتتْ في دوحة الشرف، وازدهرت في روضة الفضل، فكان أبوها وأخواها معاوية وصخر سادات سُليم من مضر. وكانت بارعة الجمال والأدب فخطبها دُريد بن الصِّمَة سيد هوازن وفارس جُشَم، فردته وآثرت التزوُّج في قومها، ولما قوَّض الدهر ركنيّ بيتها بموت أَخَويها معاوية وصخر جزَعَتْ عليهما أشد الجزع، وَبكتهما أحرَّ البكاء، ورثتهما بأبلغ الرثاء، ولا سيما صخر لما بلَتْه من كثرة إحسانه، وشدة حنانه، وقوة جَنانه. ثم وفدت في قومها على الرسول ﷺ فأسلَمت، وأنشدته فاهتز لشعرها واستزادها بقوله: هيه يا خُناس! وكان في الظن أن تُنَهْنِه الخنساءُ بعد إسلامها دموع الجزع على أبيها وأخويها تعزياً بالدين وعزوفاً عن سنة الجاهلية، إلا أن وجْدها على صخر كان وراء الصبر وفوق العزاء؛ فلم تزل تبكيه وترثيه حتى ابيضَّت عيناها من الحزن. وكانت تقول: كنت أبكي له من الثار، وأنا اليوم أبكي له من

---

١٥ ـ انظر ترجمتها في: فحولة الشعراء: ص ٣٧، ٤٥، ٦٢، وطبقات فحول الشعراء: ص ١٦٩، ١٧٤، والمغتالين: ص ٢١٨، والمؤتلف والمختلف: ص ١١٠، وسمط اللآلىء: ص ٧٨٢، والإصابة: ٥٤٩/٤ ـ ٥٥٢، وحسن الصحابة: ص ٩٤ ـ ٩٩، ومعجم المؤلفين: ٩٢/٣، والمراجع: ٨٧/٣ ـ ٩٢.

النار. على أن السن والزمن والدين ما زالت بهذه الكبد القريحة حتى انـدملت؛ فوجـدت الخنساء في شيخوختها آسياً من رَوْح اللّه ومواسياً من فضله؛ فتقبلت مصرع بنيها الأربعـة صابرة محتسبة وقد حرضتهم على القتال في حرب القادسية فاستشهدوا جميعاً. فلم تزد على أن قالت. الحمد للّه الذي شرفني بقتلهم، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمتـه. ثم توفيت بالبادية عام ٢٤ هـ.

شعرها:

ليس في شواعر العرب قبل الإسلام وبعده من تفوقُ الخنساء في رصانة شعرها، ورقة لفظه، وحلاوة جَرْسه، ولربما ضارعت في هذه الصفـات الشعراء الفحـول. ويرى النـابغة وجرير وبشار أنها أفضل من الرجال، لما في شعرها من قوة الرجولة ورقة الأنوثة. وقد غلب في شعرها الفخر والرثاء. أما الفخر فلأن أباها أَمْثلُ قومه، وأخويها خيرا مضر؛ وأمـا الرثـاء فلفجيعتها فيهم وطول وجْدها عليهم. والأسى يدُقّ الشعور، ويرق العاطفة، ويفتق القريحة في الرجل، فكيف به في المرأة؟ وكانت لا تقول إلا البيتين أو الثلاثة قبل مقتل أخويها، فلما قتلا فاض الدمع من عينها، والشعر من قبلها، فأتت في رثائها بـالمعجب المعجز. وظلت الخنساء في شعرها بدوية جاهلية، فلم تتأثر بالإسلام كثيراً ولا قليلاً.

نموذج من شعرها:

قالت ترثي أخاها صخراً:

أعـينـيَّ جـودا ولا تـجـمُـدا ... ألا تبكيـان لصـخـر النـدى؟
ألا تبكيـان الجـريء الجميـل ... ألا تـبكيـان الفتى السيـدا!
رفيـعَ العماد طـويـل النِّجـا ... دِ سـاد عـشـيـرتَـه أمـردا
إذ القـومُ مـدوا بـأيـديـهـمُ ... إلـى المـجـد مـد إليـه يـدا
فـنـال الـذي فـوق أيـديهـمُ ... من المجـد ثم انتمى مُصعِـدا
يـحمـله القـوم مـا عـالـهـم ... وإن كـان أصـغـرهم مـولـدا
وإن ذُكـر الـمـجـد ألـفـيـتـه ... تـأزر بـالـمـجـد ثـم ارتـدى

وقالت ترثيه أيضاً.

ألا يـا صـخـرُ إن أبكيتَ عـيني ... فقـد أضحكتـني زمنـاً طـويـلا
دَفعتُ بـك الخـطوبَ وأنت حي ... فمن ذا يـدفـع الخـطب الجليـلا؟
إذا قَـبُـح البـكـاء عـلى قـتـيـل ... رأيت بكـاءك الـحسنَ الجـميـلا

وقالت ترثي وتفتخر:

تَعَـرَّقني الـدهـر نهـسـاً وحـزًّا ... وأوجعني الـدهـر قـرعـاً وغمـزاً
وأفـنـى رجـالـي فـبـادوا مـعـاً ... فـأصـبـح قلبي بهـم مـسـتـفـزّا

كأن لم يكونوا حمىً يُتَّقى … إذا الناسُ في ذاكَ من عزٍّ بزّا
وخيل تكَدَّسُ بالدارعين … وتحت العجاجة يجمزن جَمْزا
ببيض الصفاح وسُمر الرماح … فبالبيض ضرباً وبالسمر وَخْزا
جززنا نواصيَ فرسانها … وكانوا يظنون ألّا تُجَزا
ومَنْ ظنَّ ممن يلاقي الحروب … بألا يُصاب فقد ظن عجزا
نعف ونعرف حق القِرى … ونتخذ الحمد ذخراً وكنزا
ونلبس في الحرب نسج الحديد … وفي السلم نلبس خزًّا وبزًّا

ومن قولها:

إن الزمان وما يفنى له عَجبٌ … أبقى لنا ذنباً واستؤصل الراس
إن الجديدين في طول اختلافهما … لا يفسدان ولكن يفسد الناس

١٦ ـ حسانُ بنُ ثابت
٥٥٣ ـ ٦٧٤ م
٦٦ ق هـ ـ ٥٤ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصاري، ولد بالمدينة ونشأ في الجاهلية، وعاش في الشعر، فكان يمدح المناذرة والغساسنة ويتقبل صلاتهم. ولكنه بالغ في مدح آل جفنَة من ملوك غسان وأكثر من انتجاعهم فأغدقوا عليه العطايا، وملأوا يديه بالنعم، ولم ينكروه بعد إسلامه وتنصرهم، فجاءته رسلهم تترى بالهدايا من القسطنطينية. ولما هاجر رسول اللّه إلى المدينة أسلم حسان مع الأنصار وانقطع إلى مدحه والنصّح عنه. وذلك أن الرسول حينما اشتد عليه أذى قريش بالهجاء قال لأصحابه: ما يمنعُ الذين نصروا اللّه ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم؟ فقال حسان: أنا لها؟ وضرب بلسانه الطويل أرنبة أنفه وقال: واللّه ما يسرني به مِقْوَلٌ ما بين بُصرى وصنعاء! واللّه لو وضعته على صخر لفَلقه، أو على شَعر لحلقه! فقال له النبي: كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال: «أَسُلك منهم كما تسل الشعرة من العجين»: فقال؛ اهجُهم ومعك روح القدس. فهجاهم فآلمهم وأبكمهم ووقعت كلماتهُ

---

١٦ ـ انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٢٠، ٣٦ ـ ٣٨، وطبقات فحول الشعراء: ص ١٧٩ ـ ١٨٣، والشعر والشعراء: ص ١٧٠ ـ ١٧٣، والأغاني: ٣/١١ ـ ١٨، ٤/١٣٤ ـ ١٧٠، ١٥/١٥٧ ـ ١٧٣، وسمط اللآلىء: ص ١٧١ ـ ١٧٢، وتهذيب ابن عساكر: ٤/١٢٥ ـ ١٤٠، ونكت الهميان: ص ١٣٤ ـ ١٣٨، انظر أيضاً: الأعلام، للزركلي ٢/١٨٨، ومعجم المؤلفين: ٣/١٩١ ـ ١٩٢ والمراجع: ٣/٣١ ـ ٣٨.

منهم موقع السهام في غسق الظلام، فاشتهر بذلك ذكره، وارتفع قدره، وعاش ما عاش موفور الكرامة مَكْفِيَّ الحاجة من بيت المال، حتى توفي سنة ٥٤ للهجرة بالغاً من العمر مائة وعشرين سنة، وقد كف بصره في أعقاب أيامه.

شعره:

كان حسان في الجاهلية شاعر أهل المُدن، وفي البعثة شاعر النبوة، وفي الإسلام شاعر اليمانية. وكان يغلب في شعره الفخر والحماسة والمدح والهجاء، وكلها أغراض تقتضي اللفظ الفخم والأسلوب القوي، فبدا عليه أثر من الحوشية والوحشية ذهب بمجيء الإسلام. ثم سكنت عوامل الشعر في نفسه بسماحة الدين وموت الأحقاد وتقدم السن، فما كانت تتحرك إلا ذياداً عن النبي ودفاعاً عن الأنصار من حين إلى حين. ولكن كثيراً من شعره في هذا الطور كان خشيباً، فكثر به السقَط، وقلت فيه الجزالة، وغلبت عليه السهولة، فرأى الأصمعي أن شعره لم يقوَ إلا في الشر، فلما جاء الإسلام بالخير ضعف. وهو في شعره يضارع ابن كلثوم في الفخر بقومه والمباهاة بنفسه، مع أنه كان جباناً مخلوع القلب.

نموذج من شعره:

قال في الهجاء:

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... مغَلغَلةً فقد بَرَح الخفاء
بأن سيوفنا تركتك عبداً ... وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند اللّه في ذاك الجزاء
أتهجوه ولستَ له بكفء؟ ... فشركما لخيركما الفداء
لنا في كل يوم من مَعَدٍ ... سبابٌ أو قتال أو هجاء
لساني صارمٌ لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدّلاء
فإنَّ أبي ووالدتي وعرضي ... لعرض محمد منكم وِقاء

وأقبل على الرسول وفد من تميم يفاخره وعليهم الزبرقان بن بدر، فلما أنشدوه أَمر حساناً أن يحييهم فقال:

إن الذوائب من فِهْرٍ وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تُتَّبع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير مُحْدَثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البِدَع
لا يرفع الناسُ ما أوهت أكفُّهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
إن كان في الناس سباقون بعدهُم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تَبَع
أعفة ذُكرت في الوحي عفتُهم ... لا يطبَعون ولا يزْرى بهم طمع
لا يفخرون إذا نالوا عدوهُم ... وإن أصيبوا فلا خوْر ولا جزع

وقال يمدح جَبَلة بن الأيهم:

لـلَّه درُّ عـصـابـة نـادمـتـهـم ... يـومـاً بجِلّقَ فـي الـزمـان الأول
يمشون في الحُلل المضاعف نسجُها ... مشي الجمـال إلى الجمـال البُـزَّل
والخـالـطون فقيـرهم بـغنيهـم ... والمشفقـون على الضعيف المُرْمـل
أولاد جفنـة حـول قـبـر أبيـهـم ... قبـر ابن مـارية الكـريم المفضـل
يَسْقـون مَن ورد البـريصَ عليهـمُ ... بَـرَدَى يُصَفّق بـالـرحيق السلسـل
يَسْقـون دريـاق الـرحيق ولم تكن ... تُـدعى ولائـدهم لنقف الحنـظل
بيض الـوجـوه كـريمـة أحسـابهم ... شُـمُّ الأنـوف مـن الـطراز الأول
فـلبثـت أزمـانـاً طـوالاً فـيـهـمُ ... ثـم ادَّركـتُ كـأنـني لـم أفعـل

ومن قوله:

وإن امـرأ يُمسي ويصـحُ سـالمـاً ... من النـاس إلا مـا جنى لـسعيـد

وقال أيضاً:

رُبَّ عـلم أضـاعـه عـدم المـا ... ل وجـهـل غـطى عليـه الـنعيم
مـا أبـالـي أَنبَّ بـالـحَزْن تيسٌ ... أم لـحـاني بـظهـر غـيـبٍ لئيم

١٧ ــ الحطيئة

... ـ ٦٦٥ م

... ـ ٤٥ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو مليكـة جرْوَل بن أوس العبسي، وُلـد في بني عبس دَعِيا لا يُعـرف له نسب، ولا يصله بالشرف سبب. فشب محرومًا مظلومًا مذمومًا لا يجد مدداً من أهله، ولا سنداً من قومه؛ فاضطر إلى الشعر يجلب به القوت ويدفع به العُدوان وينتقم به لنفسه من بيئة ظلمته وطاردته. واصطلحت عليه عوامل الشر فحملت منه صورة للرذيلة فكان كما وصفه الأصمعي سيء الخلق، دنيء النفس، فاسد الدين، سئولا، مُلْحفـاً، جشعـاً، كثير الشر، قَليل الخير، بخيلاً، دميمًا، قصيراً، رث الهيئة، متدافع النسب في القبائل. وقد بلغ من لؤمه أن هجا أمه وامرأته وبنيه حتى نفسه. فلما جاء الإسلام أسلم ثم ارتد ثم عاد مزعزع العقيدة، فلم يستطع

---

١٧ ـ انظر ترجمته في: العقدة: ص ٣٦٦، ٣٦٧، وفحولة الشعراء: ص ٣٦، ٣٧، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٦٤، وطبقـات فحول الشعـراء: ص ٩٣ ـ ١٠١، والشعر والشعـراء: ص ١٨٠ ـ ١٨٧، والأغاني: ٢/١٥٧ ـ ٢٠٢، والموشح للمرزباني، انظر: فهرسه، وسمط اللآلىء: ص ٨٠،

obeikandl.com

الدين أن يرفع هذه النفس الوضيعة، ولا أن يُفل هذا المقول الجريء البذيء فَمرَج لسانه في أعراض الناس واشتدت وقيعته فيهم. حتى الزبرقان بن بدر صاحبِ رسول الله وعامل عمر بن الخطاب لم يعصمه منه إكرامه جواره وإحسانه إليه، فمالأ بغيضَ بن عامر خصمه عليه، ومدح بني أنف الناقة وذم الزبرقان، فاستعدى عليه أمير المؤمنين عمر، فحبسه، واستشفع إليه بشعره فأطلقه وحذره هجاء الناس. فقال: إذن يموت عيالي جوعاً. هذا مكسبي ومنه معاشي. فاشترى منه الخليفة أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم. فكف حتى مات عمر ثم عاد إلى طبعه، ولبث على تلك الحال حتى أسكته الموت سنة ٥٩ هـ.

شعره:

الحطيئة شاعر متين الشعر، غزير البحر، رائق الأسلوب، شرود القافية، متصرف في فنون القول، من مديح وهجاء ونسب وفخر. ولولا خساسة طبعه، ودناءة طمعه، وقبح تبذله، لما فضله في المخضرمين أحد، فإنك لا تكاد تجد في شعره ما يكثر في شعر غيره من سخافة في النسج، أو ركاكة في اللفظ، أو نُبُو في القافية، ولكن شرف الكلام بشرف قائله.

والحطيئة كزهير معدود في عبيد الشعر الذين روَّوا فيه ونقحوه. وقد يؤثر عنه قوله. «خير الشعر الحوليّ المنقح المحكك». وقلما تجد في هجائه على مرارته فحشا أو هُجراً، حتى عمِّي على أمير المؤمنين عمر قوله في هجاء الزبرقان:

دَعِ المكارم لا ترحلْ لبُغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فلم يفطن إلى موضع الهجاء فيه لدقته حتى دل عليه حسان.

نموذج من شعره:

قال يهجو الزِّبرِقان بن بدر وقد زعم أنه أساء جواره فتحول عنه إلى بغيض:

والله ما معشرٌ لاموا أمرَأ جُنباً ... في آل لأى بن شمَّاس بأكياس
ما كان ذنبَ بغيض لا أبالكم ... في بائس جاء يحدو آخر الناس!
وقد مدحتكُم عمداً لأرشدكم ... كما يكون لكم مَتحي وإمراسي
لما بدا ليَ منكم عيب أنفسكم ... ولم يكن لجروحي فيكم آسي
أزمعت يأساً مبيناً من نوالكم ... ولن يُرى طارداً للحر كالياس
جارٌ لقومٍ أطالوا هُونَ منزله ... وغادروه مقيما بين أرماس
ملوا قِراه وهرّته كلابهُمُ ... وجرّحوه بأنياب وأضراس
دع المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
من يفعل الخير لا يعدمْ جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال في المدح:

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها ... وإن غضبوا جاء الخفيظةُ والجد
أقلوا عليهم لا أبا لأبيكمُ ... من اللوم أو سُدُّوا المكان الذي سدوا
أولئك قوم إن بَنوا أحسنوا البِنَا ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا
وإن كانت النعماء فيهم جَزَوْا بها ... وإن أنعموا لا كدَّروها ولا كدوا
مطاعينُ في الهيجا مكاشيف للدجى ... بنى لهمُ آباؤهم وبنى الجَد
ويعذلني أبناءُ سعدٍ عليهم ... وما قلت إلا بالذي علمت سعد

الشعراء الإسلاميون

١٨ ـ عمر بن أبي ربيعة
٦٤٤ ـ ٧١٢ م
٢٣ ـ ٩٣ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو الخطاب عمر بن أبي ربيعة القرشي المخزومي. ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب، فكان يقال، أي حق رُفع، وأي باطل وضع! ثم شبل في نعمة أبيه عبد الله عامل الرسول والخلفاء الثلاثة من بعده. وكان سَرِيًا غنيًا، فتقلب عمر في أعطاف النعيم، ورتع في رياض الترف، وخلا ذَرْعه من معالجة الأمور، ففرغ للشعر وقاله وهو صغير، فما أبَهَ له أحد من فحوله كجرير والفرزدق. ومضي وهو يروض قوافيه ويستعطف أبيَّه حتى ارتاض له وأسلس. فقال جرير وقد سمع رائيته التي مطلعها:

أمِن آل نُعم أنت غادٍ فمبْكر ... غداة غدٍ أم رائح فَمُهَجِّر

«مال زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر». وسلك ابن أبي ربيعة إلى الشعر طريقاً غير مألوفة ولا معروفة؛ فقصره على وصف النساء وتزاورهن ومداعبة بعضهن لبعض بلفظ رشيق وأسلوب مبتكر، فأولع به المغنون والظرفاء، وشغُف به القِيان والندماء، وكثر غناء الناس به وروايتهم له حتى ضج الْغُبرُ والزهاد وقال ابن جرَيج: «ما دخل العواتقَ في خدورهن شيء أضر عليهن من شعر ابن أبي ربيعة». ولم يقف شرُّه عند ذاك، وإنما كان

---

١٨ ـ انظر ترجمته في: المردفات: ص ٧٢ ـ ٧٣، وطبقات فحول الشعراء: ص ٥٣٠، والشعر والشعراء: ص ٣٤٨ ـ ٣٥٢ ـ والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني: ١/٦١ ـ ٢٤٨، والموشح: ص ٢٠١ ـ ٢٠٦، وخزانة الأدب: ١/٢٣٨ ـ ٢٤٠، ومعجم المؤلفين: ٦/٢٩٤، وطبقات الشعراء: ص ٢٢٨، ٢٥٥.

يتعرض للحواج فيشبب بالعقائل والأميرات، ويصفهن طائفاتٍ مُحرمات، فزهدت كرائم الأسَر في أداء الفريضة خشية منه. وألوا الأمر يتعمدون هذا الجهل بالحلم رعاية لأسرته، وفخراً بشاعريته، وترقبًا لتوبته. ولكن الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يسعه الصبر على تماديه في المجون، وإمعانه في الجهالة، فنفاه إلى دَهْلك إحدى جزُر البحر الأحمر بين بلاد اليمن والحبشة، وقد كانت منفى لبني أمية ولم يعد إلا بعد أن أقسم أنه يقلع عن صبوته، ويخلص إلى الله في توبته. ولعل بلوغه العمْرين قد أعانه على البر بقسمه، فزهد وتنسك. ومن الناس من يقول إن عمر كان عفيفًا يصف ولا يقف، ويحوم ولا يرد؛ ويذكرون أنه لما مرض مرضه الأخير جزع أخوه الحارث عليه جزعاً شديداً، فقال له عمر: أحسِبك إنما تجزع لما تظنه بي. والله ما أعلم أني ركبت فاحشة قط فقال: ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك، وقد سَرّيتَ عني.

شعره:

لشعر ابن أبي ربيعة نَوطةٌ في القلب، وروعة في النفس، لسهولته وأناقة لفظه، وحسن وصفه، وشدة أسْره، وقرب فهمه، وملاءمته لهوى النفوس في نعت الجمال ووصف المرأة. وقد ساعده نسبُه وَنشَبُه وترفُه على أن يقول في ذلك ما لم يجرؤ أحد على قوله: فسلك في الغزل مسلك القصص: يصف النساء ويحكي حديثهن ومداعبتهن ويذكر أمره معهن. فبهر الناس حتى حملهم على الإقرار لقريش بالشعر، وقد كانوا ينكرونه عليها. وبرع الشعراء حتى قال جرير: هذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطأته وتعللت بوصف الديار! ». على أنك لا تجد في شعره ما تجد في شعر جميل وكُثَيِّر من الشعور العميق والوصف الدقيق للحب، وإنما هو تِبْع نساء يسره أن يخالطهن ويحادثهن ويتجمل لهن دون أن يفتح قلبه لواحدة منهن؛ اللهم إلا أمرَه مع الثريا بنت علي ابن عبد الله بن الحارث فإنه يشبه أن يكون حبًّا.

نموذج من شعره:

قال من قصيدة في التشبيب:

نحنُّ إلى نُعم فلا الشمل جامع ... ولا الحبل موصول ولا أنت مقصِر
قفي فانظري أسماء هل تعرفينه ... أهذا المغيريُّ الذي كان يذكر؟
أهذا الذي أطريت نعتاً فلم أكن ... وعيشك أنساه إلى يوم أُقبَر
لئن كان إياه لقد حال بعدنا ... عن العهد والإنسان قد يتغير!
رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت ... فَيُضْحي وأمَّا بالعشي فَيَخْصر
أخا سفر جوَّابَ أرض تقاذفت ... به فلوات فهو أشعث اغبر
قليلاً على ظهر المطية ظلُّه ... سوى ما يقي منه الرداء المحبَّر

وأعجبها من عيشة ظلُّ غرفة ... وريَّانُ ملتف الحدائق أخضر
ووال كفاها كل شيءٍ يهمها ... فليست لشيء آخر الليل تسهر
وليلة ذي دوران جشمني الكرى ... وقد يجشم الهولَ المحبُّ المغرّر
وبتّ رقيباً للرفاق على شفا ... ولي مجلسٌ لولا الليانة أوعر
فقلت أباديهم فإما أفوتهم ... وإما ينال السيف ثأراً فيثأر
فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت ... مصابيح شُبَّتْ للعشاء وأنور
وغاب قمير كنت أرجو غيوبَه ... وروّح رعيانٌ ونوّم سمَّر
ونفَّضت عني النوم أقبلت مِشيَة ال ... حَبَاب وركني خيفةَ القوم أزْور
فحييت إذ فاجأتها فَتَوَألت ... وكادت بمهجور التحية تجهر
وقالت وعضت بالبنان: فضحتني! ... وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر
أرَيْتكَ أن هُنَّا عليك ألم تخف ... رقيباً وحولي من عدوك حضر
فلما تقضى الليل إلا أقلَّه ... وكادت تَوَالى نجمه تتغوّر
أشارت لأختيها أعينا على فتى ... أتى زائراً والأمر للأمر يُقَدر
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا: ... أقِلي عليك اللومَ فالخطب أيسر
يقوم فيمْشي بيننا متنكراً ... فلا سرُّنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مَجنّي دون من كنت أتّقي ... ثلاثُ شُخوص. كاعبان ومُعْصِر
فلما أجزنا ساحة الحي قلن لي: ... ألم تتق الأعداء والليل مقْمِر؟
وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً ... أما تستحي أو ترعوي أو تفكر!
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا ... لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر
هنيئًا لبعل العامرية نَشْرها ... اللذيذ وريَّاها الذي أتذكر

ومن قوله:

ألا ليت أني يوم تُقضى منيتي ... لثمث الذي ما بين عينيك والفم!
وليت طَهوري كان ريقك كلَّه ... وليت حنوطي من مُشاشك والدم
ألا ليت أمَّ الفضل كانت قرينتي ... هنا أو هنا في جنة أو جهنم

وكتب إلى الثريا وهي باليمن:

كتبت إليك من بلدي ... كتابَ مُوَلَّه كمدِ
كئيب واكف العَيْنَيْـ ... ـنِ بالحسَرات منفرد
يُؤَرقه لهيب الشو ... ق بين السَّحْر والكبد
فيُمسك قلبَه بيد ... ويمسح عينَه بيد

١٩ ـ الأخطل (١)

٦٤٠ - ٧١٢ م

١٩ ـ ٩٥ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو مالك غِيَاث بن غوث التغلبي: نشأ بالجزيرة الفراتية في قومه بني تغلب على النصرانية كأكثر أهل هذه القبيلة. وفجع في أمه وهو صغير، فربته زوجة أبيه فأساءت تربيته. فشب سليط اللسان خبيث النية مدمنًا للخمر وبدت بواكير شعره منذ الحداثة، فهاجَى كعب بن جُعَيل شاعر تغلب فأخمله وهبَّ ذِكره يسير. ولما طلب يزيد بن معاوية وهو وليّ العهد من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار لتعرض عبد الرحمن بن حسان لأخته في شعره، خشي الأنصارَ ودله على الأخطل رجاة أن يفتكو به، فكان ذلك سببًا في صعود نجمه وذيوع اسمه. فإنه اتصل بيزيد وهجا الأنصار فغضبوا، وشكوه إلى معاوية فحكّمهم فيه، فطلبوا قطع لسانه. ولكن يزيد ترضاهم فعفوا عنه. وعرف له خلفاء بني أمية هذه اليد فقدموه وأكرموه، وبخاصة عبد الملك بن مروان، لأنه استعان به على قبائل قيس وشعرائها لممالأتهم أعداءه من آل الزبير، فسهَّل عليه حجابه، ووطَّأ له جنابه وأغدق عليه عطاءه، وسماه شاعر الخليفة: وبلغ من دالة الأخطل على عبد الملك أنه كان يجيئه وعليه جبة خز وفي عنقه صليب ذهب ولحيته تنفض خمراً فيدخل عليه بغير إذن. أما دخوله في المهاجاة بين جرير والفرزدق، فسببه أنه عرَّض بتفضيل هذا حينما سئل أيهما أشعر. فلما بلغت حكومته جريراً غضب وهجا الأخطل بأبيات منها:

يا ذا الغباوة إن بِشراً قد قضى ... ألاّ تجوز حكومة النشوان

فرد عليه الأخطل في شيء من الضعف لتقدم سنه وفتور طبعه. وقد اعترف بذلك جرير في قوله لابنه: أدركته وله ناب واحد، ولو أدركته وله نابان لأكلني» ومَا زال الأخطل أثيراً عند بني أمية حتى أقصاه عمر بن عبد العزيز.

وكان يعيش حينًا في دمشق وحينًا في بلاده الجزيرة، وتوفي في أول خلافة الوليد سنة ٩٥ بالغاً من العمر سبعين سنة.

---

١٩ ـ انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٢٣، ٢٤، ٣٧، والشعر والشعراء: ص ٣٠١ ـ ٣١٢، والمؤتلف والمختلف: ص ٢١، والموشح ص ١٣٢ ـ ١٤٢ وسمط اللآلىء: ص ٤٤ ـ ٤٥، الأعلام، للزركلي ٣١٨/٥ ومعجم المؤلفين: ٣٢/٨ ـ ٤٣، والمراجع: ١٣/٢ ـ ١٨، بروكلمان الأصل 52 - 1,49 والملحق 84 - 1,83.

(١) يقال لهؤلاء أيضاً عليا هوازن؛ وهم سعد بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف: وفيهم يقول أبو عمرو بن العلاء، أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم.

شعره:

الأخطل أحد الثلاثة السابقين المتقدمين في هذا العصر، وهم جرير والفرزدق وهو. وقد اتفق الناس على أنهم أجود معاصريهم شعراً وأسيَرهم ذِكراً، ولكن اختلفوا في أيهم أشعر إخوته. والحق أن لكل منهم مزية وميزة.

فالأخطل ممتاز بإجادة المدح، ونعت الخمر، وقلة البذاء في الهجاء، وسلامة قصائده الطوال من اللغط والسَّقط، ومرود طبعه على الروية والتنقيح: فقد يلبث في مدائحه سنة. وربما بلغت قصيدته تسعين بيتًا فيقتصر منها بعد التهذيب على الثلث. وأبتْ عليه طبيعته المرِحة أن يقول في الرثاء؛ فلم يؤثر عنه منه إلا أربعة أبيات في رثاء يزيد بن معاوية، وهو سبب شهرته وأصل نعمته. وكان فخوراً بنفسه، لا يرى فوقه أحداً إلا الأعشى، ولذلك كان يجري على أسلوبه.

نموذج من شعره:

قال يمدح عبد الملك بن مروان:

نفسي فداء أمير المؤمنين إذا ... أبدى النواجذ يوماً عارم ذكر
الخائض الغمرة الميمون طائرهُ ... خليفة الله يُستسقى به المطر
في نبعة من قريش يعصمون بها ... ما إن يوازَى بأعلى نبتها الشجر
حُشدٌ على الحق عيّافو الخنا أنُفٌ ... إذا أُلمَّتْ بهم مكروهة صَبروا
لا يستقلُّ ذوو الأضغان حربهَم ... ولا يُبَيَّنُ في عيدانهم خَوَر
شُمسُ العداوة حتى يستقَادَ لهم ... وأوسع الناس أحلاماً إذا قدَروا
هم الذين يبارون الرياح إذا ... قلّ الطعام على العافين أو قتَروا
بني أمية نُعماكم مجلّلَةٌ ... تمت فلا منَةٌ فيها ولا كدر

وقال يهجو الأنصار:

وإذا نسبتَ ابن الفريعة خلتَه ... كالجحش بين حمارة وحمار
لعن الإله من اليهود عصابةً ... بالجزع بين صُلَيْصِل وصرار
قوم إذا هدر العصير رأيتهم ... حمراً عُيونُهُم من المسطار
خلوا المكارم لستم من أهلها ... وخذوا مساحيكم بني النجار
ذهبت قريش بالمفاخر كلها ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

ومن قوله:

والناس همهم الحياة ولا أرى ... طول الحياة يزيد غير خبال
وإذا إفتقرت إلى الذخائر لم تجد ... ذخراً يكون كصالح الأعمال

٢٠ ــ الفـرزدق
٦٣٣ ـ ٧٠٦ م
١٢ ـ ١١٠ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو فراس همام بن غالب التميمي. كانت ولادته ونشأته بالبصرة، فدرج في عش الأدب وشب في ربوع الفصاحة. وأخذ أبوه يروِّيه الشعر ويعلمه القريض حتى تفتقت عنـه قريحته، وانطلق به لسـانـه؛ فقدمه ذات يوم إلى أمير المؤمنين عليّ بعد واقعة الجمل مفتخراً بجودة شعره على صغره. فقال عليه السلام أقرئه القرآن فهو خير له. فارتسمت هذه الكلمة في ذهن الفـرزدق حتى كبر، فصمم على حفظ القـرآن، فقيد نفسـه وأقسم ألا يفَك حتى يحفظه؛ وبَرّ بيمينه. ثم اتصل بولاة المصرين فنـالهم بالمـدح والهجاء، وأجـازوه بالإدنـاء والإقصاء. ومدح خلفاء الأمويين بالشام ولا سيما عبد الملك فوصلوه ولكنه لم ينفق عندهم لتشيعه لآل عليّ. وكان الفرزدق معاصراً لجرير وكان بينهما تنافس وتحاسد. فما كاد يحتدم الهجاء بين جرير وبين شاعر آخر اسمه البَعِيث حتى وقف الفرزدق في صف البعيث وآزره. فغاظ ذلك جريراً فهجا الفرزدق، ورد عليه هذا، فاستطار بينهما الهجاء عشـر سنين، ففتق ذهنيهما، وأحدَّ لسانيهما، ونمى فيهما قوة المبـادهة والمجـادلة، وصـدق النظر. وانشعب الناس في أمرهما شعبتين، تناصر كل منهما أحد الشـاعرين. وجعـل أحد أشيـاع الفرزدق أربعة آلاف درهم وفرساً لمن يغلبه على جرير، وكان الفرزدق فاجراً، فاحش النطق، خبيث الهجاء، ضعيف الدين، قاذفاً للمحصنَات، يأوي إلى ركن شديد من شرف حسبه، وكـرم نسبه. فاستعان بكل رذائله وفضائله على جرير فما هزمه ولا أسقطه.

ثم كانت له مواقف محمودة في الذود عن آل عليّ تجلت فيها صـراحته وشجـاعته، كموقفه يوم التقى بهشام بن عبد الملك في الحج، وسمعه يقول حينما رأى علي بن الحسين في موضع التجلة من الناس: (من هذا؟) تجاهلاً لأمره، وغضا من قدره. فشق ذلك على الفرزدق، فأجابه بقصيدته التي مطلعها:

هـذا الذي تعـرف البطحـاء وطـأتـه   والبيت يعـرفـه والحِـلُّ والحـرم

---

٢٠ ـ انظر رجمته في: النقائض: لأبي عبيدة، انظر فهرسه، وفحـولة الشعـراء: ص ٢٣، ٢٤، ٣٨، ٣٩، وطبقـات فحـول الشعـراء: ص ٢٥٠، ٢٥١ ـ ٣١٤، وأسمـاء المغتـالين: ص ١٨٢ ـ ١٨٣ والشعـر والـشعــراء: ص ٢٨٩ ـ ٣٠١، والـمؤتـلف والـمختـلف: ص ١٦٦، والأغــاني: ٩/٣٢٤ ـ ٣٤٥، ٢١/٢٧٦ ـ ٤٠٣، وسمط الـلآلى: ص ٤٤، وإرشاد الأريب: ٧/٢٥٧ ـ ٢٦١، ووفيـات الأعيـان: ٢/٢٥٩ ـ ٢٦٧، وخزانة الأدب: ١/١٠٥ ـ ١٠٨، ومعجم المؤلفين: ١٣/١٥٢ ـ ١٥٣.

فحبسه هشام ثم أطلقه بعد هجائه إياه. وتوفي الفرزدق بالبصرة سنة ١١٠ هـ وقد شارف المائة.

شعره:

كان الفرزدق فخوراً بأصله مدِلاً بأهله، ولوعاً بتعداد مآثر آبائه حتى أمام الخلفاء، فغلب شعره في الفخر؛ ولغة الفخر تقتضي الألفاظ الضخمة، والأساليب الفخمة، والكلم الغريت، وذكر أيام العرب وأنسابهم، واحتذاء البادين في أساليبهم. لذلك أعجب به الرواة، وفضلة النحاة، وقالوا: لولا شعر الفرَزدق لذهب ثلث العربية. على أنه طالما تألم من صلابة شعره؛ وتمنى أن تكون له رقة جرير لعُهْره، ولجرير صلابته لطهره. وفي ذلك تأييد منه لحكم الأخطل عليهما بقوله: الفرزدق ينحت من صخر، وجرير يغرف من بحر.

والفرزدق بعد ذلك في الهجاء مقذع، وفي الوصف مبدع، وفي المديح وسط، وفي الرثاء متخلف.

نموذج من شعره:

إذا اغبرَّ آفاقُ السماء وكشَّفت ... بيوتاً وراء الحيّ نكباءُ حَرجُف
وأصبح مُبْيَضُّ الصقيع كأنه ... على سَرَوَات النّيب قطنٌ منَدَّفُ
ترى جارنا فيه بخير وإن جنى ... فلا هو مما ينطف الجار ينطف
وكنا إذا نامت كليب عن القِرى ... إلى الضيف نمشي بالعبيط ونلحف
لنا العزة القعساءُ والعدد الذي ... عليه إذا عدَّ الحصى يتخلف
ترى الناس إن سرنا يسيرون خلفنا ... وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا
وإنك إذ تسعى لتدرك شأونا ... لأنت المعنيَّ يا جرير المكّلُف

وقال أيضًا:

ومستمنح طاوى المصير كأنما ... يساوره من شدة الجوع أوْلق
دعوت بحمراء الفروع كأنها ... ذرَى راية في جانب الجو تخفق
وإني سفيه النار للمبتغي القِرى ... وإني حليم الكلب للضيف يطرق
إذا مت فابكيني بما أنا أهله ... فكل جميل قلتِ فيَّ يصدَّق
وكم قائل مات الفرزدق والندى! ... وقائلة مات الندى والفرزدق

ومن قوله في مدح على بن الحسين:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحِلُّ والحرم
هذا ابن خير عِباد الله كلّهِم ... هذا التقيُّ النقيُّ الطاهر العلم

وليس قولك (مَنْ هذا) بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يُغضِي حياء ويُغضِي من مهابته ... فما يكلم إلا حين يبتسم
يكاد يمسكه عرفانَ راحته ... ركنُ الحطيم إذا ما جاءَ يستلم
ينشقُّ نور الهدى عن نور غرته ... كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم
من معشر حبُّهم دين وبغضهمُ ... كفرٌ وقربهمُ منجى ومعتصَم

ومن أبياته السائرة قوله:

فيا عجباً حتى كليبٌ تسُبُّني ... كأن أباها نهشل أو مُجاشع

وقوله:

وكنا إذا الجبار صعّر خده ... ضرَبناه حتى تستقيم الأخادع

وقوله:

تُرَجي ربيع أن يجيء صغارها ... بخير وقد أعيا ربيعاً كبارُها

وقوله:

قوارص تأتيني وتحتقرونها ... وقد يملأ القطرُ الإناءَ فيُفْعِم

وقوله:

أحلامنا تزن الجبال رزانة ... وتخالنا جِنًّا إذا ما نجهلُ

وقوله:

ترى كل مظلوم إلينا قرارهُ ... ويهرب منا جهدَهُ كلُّ ظالم

٢١ ـ جرير[1]

٦٤٠ ـ ٧٢٨ م

٢٨ ـ ١١٠ هـ

نشأته وحياته:

هو أبو حرْزة جرير بن عطية الخَطفي التميمي. ولد باليمامة لسبعة أشهر، ونشأ

---

٢١ ـ انظر ترجمته في: فحولة الشعراء: ص ٢٣، ٢٤، ٣٨، ٣٩، ٤٥، ٦٥، وطبقات فحول الشعراء: ص ٣١٥ ـ ٣٨٦، والمؤتلف والمختلف: ص ٧١ والموشح: ص ١١٨ ـ ١٣٢، وسمط اللآلىء: ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ ووفيات الأعيان: ١/١٢٧ ـ ١٣٠، ومعاهد التنصيص: ٢/٢٦٢ ـ ٢٦٩ وخزانة الأدب: ١/٣٦ ـ ٣٧، ومعجم المؤلفين: ٣/١٢٩ ـ ١٣٠ والمراجع: ٢/١٤٨ ـ ١٥٦.

(١) راجع صفحة ١٢٠، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢.

بالبادية، فشبَّ فصيح اللسان صحيح الوجدان مطبوع القريحة على الشعر. ولما آنس في نفسه القدرة على قرضه، والجرأة على عرضه، ورد البصرة موطن الفرزدق ينتجع الكرماء، ويمتدح الكبراء، ويمتار لأهله. فازدهاه ما رأى على الفرزدق من حُلل النعمة ومظاهر الجاه بفضل الشعر، وهو تميمي مثله، فدب في قلبه دبيب الحسد له، واشتهى أن يساويه في حسن حاله، ووفرة ماله.

فتولدت من تنافسهما وتزاحمها أسباب المهاجاة بينهما. وأراد جرير أن يرامي قِرنه عن كَثَب، فترك البادية واستوطن البصرة وغشى المربد. ودخل في كنف الحجاج فحسن موقعه عنده، وطارت مدائحه فيه، حتى بلغت عبد الملك فَنفَسِه على الحجاج. وأحس الوالي رغبة الخليفة فأوفده مع ابنه محمد إلى دمشق، فلما دخل جرير على عبد الملك استأذنه فأبى، وقال له بلهجة العاتب الحنِق: إنما أنت للحجاج! فما زال يتوسل إليه، ويتحمل بالناس عليه حتى أنشده قصيدته التي مطلعها:

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشية هَمّ صحبك بالرواح؟

فلما وصل إلى قوله منها:

ألستم خيرَ من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح؟

تبسم عبد الملك وقال: كذلك نحن وما زلنا كذلك. وأجازه بمائة لقحة وثمانية رِعاء، وأصبح جرير بعد هذه القصيدة وهمود الأخطل آثرَ الشعراء عند الخلفاء ولا سيما عمر ابن عبد العزيز، ولكن زَلفاه لدى القصر أشعلت نار الغيرة في قلوب مناظريه، فشَنوا عليه حرب الهجاء وأرَّثّ هذه الحربَ أعراضُ السياسة، وتحريضُ الفرزدق، وضيق خلق جرير، وحب الناس لمشاهد الخصومة؛ فنصب لجرير من هؤلاء الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعًاإلا الفرزدق والأخطل فإنهما نازعاه الغلبة وثَبتا له. ودامت هذه المهاجاة سجالاً بينهم حتى توفي الأخطل، ففرغ جرير للفرزدق وكانت بينهما النقائض المشهورة التي لهج بها الناس، وشغل بها الشعراء، ثم بدا للفرزدق أن يكف، فكف وتنسك حتى مات. فمضى جرير لسبيله بعده ببضعة أشهر ودفن باليمامة سنة ١١٠ هـ.

شعره:

برىء جرير من خبث الأخطل وسُكره، ومن جفاء الفرزدق وفجره، وتجمل بصفاء الطبع، ورقة الشعور، ونقاء الجيب، وصحة الدين، وحسن الخلق، فظهر أثر ذلك كله في شعره، فامتاز بطلاوة الأسلوب، وحلاوة الغزل، ومرارة الهجاء، وإجادة الرثاء، وحسن التصرف في جميع فنون الشعر. فكان بذلك أظهر في سماء الشعر، وأقرب إلى صفة

الشاعر، وأكثر أشياعاً من الأخطل والفرزدق. فإن الأول لم يجد إلا في المدح والهجاء والخمر، والثاني لم ينبغ إلا في الفخر.

نموذج من شعره:

قال يهجو الفرزدق:

لقد ولدت أمُّ الفرزدق مقْرفاً ... فجاءت بوزَّار قصير القوادم
بوصِّل حَبْليْه إذا جَنَّ ليله ... ليرقى إلى جاراته بالسلالم
دلَّيْتَ تزني من ثمانين قامة ... وقصَّرْتَ عن باع العلى والمكارم
هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا ... مداخل رجس بالخبيثات عالم
لقد كان إخراج الفرزدِق عنكم ... ظهوراً لما بين المصلي وراقم

ومن جيد قوله فيها:

تعالوا نحاكمكم وفي الحق مقنع ... إلى الغُرِّ من أهل البطاح الأكارم
فإن قريش الحق لم تتْبع الهوى ... ولم يرهبوا في الله لومة لائم
أذكركم بالله مَنْ ينهل القنا ... ويضرب كبش الجحفل المتراكم؟
وكنتم لنا الأتباع في كل موقف ... وريش الذُّنابي تابع للقوادم
إذا عُدت الأيام أخزيت دارما ... وتخزيك يا ابن القين أيامُ دارم
وما زادني بُعد المدى نَقْض مِرَّة ... ولا رقَّ عظمي مضرُّوس العواجم

ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز:

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة إذ كانت له قَدَرا ... كما أتى ربَّه موسى على قدر
أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت ... أم تكتفي بالذي بلِّغت من خبري
ما زلت بعدك في دار تَعَرَّقني ... قد طال بعدك إصعادي ومُنْحدري
لا ينفع الحاضرُ المجهود بادِينا ... ولا يجود لنا بادٍ على حضر
كم بالمواسم من شعثاء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به ... مسًّا من الجن أو رزءاً من البشر
ممن يعدُّكَ تكفي فَقدَ والده ... كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر

ومن أبياته التي تفرد بها قوله في الغزل:

إن العيون التى في طرفها حَوَر ... قَتلْننا ثم لم يحيين قَتْلانا
يصرعَنْ ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله إنساناً

وقوله في الفخر:

إذا غضبت عليك بنو تميم ... حسبت الناسَ كلهمُ غِضابا

وفي الهجاء:

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وفي التهكم:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً ... أبشر بطول سلامة يا مربع؟

ومن جيد فخره قوله:

إن الذي حرم المكارم تغلبا ... جعل الخلافة والنبوة فينا

مُضَرٌ أبي وأبو الملوك، فهل لكم ... يا خزر تغلب من أب كأبينا؟

هذا ابن عمي في دمشق خليفة ... لو شئت ساقكمُ إليَّ قطينا

ويقال إن عبد الملك لما بلغته هذه الأبيات قال: ما زاد ابن المراغة على أن جعلني شُرَطيًا. أما إنه لو قال: لو شاء ساقكم إليّ قطينًا، لسقتهم إليه!

٢٢ ـ الطِّرمّاح بن حكيم

٠٠٠ ـ ٧٤٣ م

٠٠٠ ـ ١٠٠ هـ

نشأته وحياته:

نشأ الطّرمَّاح بن حكيم الطائيّ بدمشق في النصف الأخير من القرن الأول. وظل في الشام غفْلا من الأغفال حتى بلغ حد الرجال فانتقل إلى الكوفة مع مَنْ وردها من جنود بني أمية، ونزل في تيم اللات بن ثعلبة. وكان فيهم شيخ من الشرَاة الأزارقة[1] له سمت وهيئة، فكان يجالسه ويلابسه؛ فوقفه على عقيدته ودعاه إلى طريقته، فقبلها واعتقدها أشد اعتقاد وأصحه حتى لقي الله عليها. ثم عرف الكمَيْت بن زيد الأسدي، فتساهما الوفاء، وتقاسما المحبة، وتمكنت بينهما الألفة على اختلاف ما بينهما في النسب والمذهب والبلد. فالطرماح قحطاني شامي خارجي، والكميت عدناني كوفي شيعي. وقد سأل بعض الناس الكميت عن سر هذا

---

٢٢ ـ انظر ترجمته في: الشعر والشعراء: ص ٣٧١ ـ ٣٧٤، والمؤتلف والمختلف: ص ١٤٨، والمكاثرة ص ٣٩ وإرشاد الأريب: ٣٦١/٢، ٨/٧، وتهذيب ابن عساكر: ٥٢/٧ ـ ٥٣ وخزانة الأدب: ٤١٨/٣، ومعجم المؤلفين: ٤٠/٥ ـ ٤١، والمراجع: ٢٢٧/٣ ـ ٢٣٠.

(١) وهي فرقة من فرق الخوارج.

الاتفاق مع شدة هذا الاختلاف فأجاب: «إنما اتفقنا على بغض العامة» وهذا الجواب تصديق أو تطبيق للمثل اللاتيني القائل: «كل الشعراء أرستقراطيون». وعاش الطرماح عيش الشعراء على فضل الأغنياء يمدح من يعطيه ويهجو من يمنعه، وهو مع ذلك عزيز النفس، شريف الطبع، بعيد الهمة لم يَقِفه المال على حبه إياه مواقف الضراعة والهوان. دخل هو والكميت على مخلد بن يزيد المهلبي، فجلس لهما ودعاهما، فتقدم الطرماح لينشد، فقال له: أنشدنا قائماً. فقال: «كلا والله: ما قَدْرُ الشعر أن أقوم له فيخط مني بمقامي وأحط منه بضراعتي، وهو عمود الفخر، وبيت الذكر لمآثر العرب «فقيل له: تَنحَّ ودع الكميت، فأنشد الكميت قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم، فلما خرج شاطرها الطرماح وقال له: أنت أبا ضبيبة أبعد همة، وأنا ألطف حيلة.

وكان الطرماح مع اعتداد بأمره وإعظامه لقدره، معجباً بشعره فخوراً به. سمع هو وصاحبه الكميت أبياتاً من ذي الرُّمة، وكان معاصراً لهما، فضرب الكميت صدر الطرماح وقال: «هذا والله الديباج لا نسجي ولا نسجك الكرابيس» فقال الطرماح: «لن أقول ذلك ولو أقررت بجودته».

وكال الطرماح رغيب العين يشره إلى المال، ويتشوف إلى الغنى ويقول:

أمْختَرمِي رَيْب المنون ولم أنَلْ ... من المال ما أعصي به وأطيع؟

فدأب في سبيله وجدَّ في تحصيله، ودعا الله ألا يموت حتف أنفه بل يموت ميتة الجاهدين أو المجاهدين، فيكون شهيد الدنيا أو شهيد الدين.

وفي ذلك قوله:

وإني لمقتاد جوادي وقاذِفٌ ... به وبنفسي العام شتى المقاذف
لأكسب مالاً أو أؤول إلى غنى ... من الله يكفيني عِدات الخلائف
فيا رب إن حانَتْ وفاتي فلا تكن ... على شَرْجَعٍ يُعلَى بخضر المطارف
ولكن قبري بطنُ نسر مقيلُه ... بجو السماء في نسور عواكف
وأمسي شهيداً ثاوياً في عصابة ... يصابون في فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم ... تقى الله نزَّالون عند التراجف
إذا فارقوا دنياهمو فارقوا الأذى ... وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف

ولكن الله لم يستجب دعاءه فمات على فرش وحمل في نعش.

شعره:

نشأ الطرماح نشأة حضرية، فما عرف البادية ولا لابس البدو. ولكنه عاش في الكوفة وألَمَّ بالبصرة فسمع الرواة والنحاة فيهما يؤثرون الأدب الجاهلي ويقدمون الشعر البدوي،

لأنه موضع الشاهد، وموطن الغريب، فولد ذلك فيه وفي الكميت حب الغريب وتكلف الحوشي؛ فكان يتسقطه من الأعراب ويتلقطه من الرُّجَّاز، ويستعمله فلا يقع به في مكانه. قال العجاج: كان الطرماح والكميت يسألانني عن الغريب فأخبرهما به ثم أراه في شعرهما وقد وضعاه في غير موضعه. فقيل له: ولم ذلك؟ فقال: لأنهما قرويان يصفان ما لم يريا. ومن ثمّ كان الأصمعي وأبو عُبيدة يعيبان شعرهما في الإسلاميين، كما عابا شعر عدي بن زيد وأمية بن أبي الصلت في الجاهليين. وإنك لترى أثر هذا الميل ظاهراً في شعره، فبينما يأتيك بالأبيات الرقيقة الأنيقة العذبة، إذا به يرميك بالأبيات الغريبة البعيدة الفجَّة، فيشوه شعره ويكدر بحره. وقد سئل ابن الأعرابي عن ثماني عشرة مسألة من شعر الطرماح فلم يعرف منها واحدة! على أنه معدود في الفحول من الشعراء الإسلاميين، وله مذهب معروف في الهجاء يركب له المبالغة في تصغير شأن المهجوِّ وتحقير أمره فكأنما يوحى إليه. وكان الكميت وهو معاصره ومعاشره يُقِرُّ له بالنبوغ في نواح كثيرة من نواحي الفضل، فقد أنشد يومًا قول الطرماح:

إذا قُبِضتْ نفس الطرماح أخلقتْ ... عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال: إي والله! وعنان الخطابة والروية والفصاحة والشجاعة.

نموذج من شعره:

الطرماح من أصحاب الملحمات، وملحمته تريك التفاوت بين السهل الطبيعي والوعر المتكلف، ومطلعها:

قلَّ في شطِّ نهروانَ اغتماضي ... ودعاني هوى العيون المراض
فتَطَرَّبْتُ للصبا ثم أوقفـ ... ـت رضاً بالتقي وذو البر راضي
وأراني المليك رشدي وقد كنـ ... ـت أخا عنجهيَّةٍ واعتراض
غير ما ريبةٍ سوى ريِّق الغرة (م) ... ثم ارعويت بعد البياض

ومنها:

وجرى بالذي أخاف من البين (م) ... لعين تَنوض كلّ مناض
صَيْدحِيُّ الضحى كأن نَساه ... حيث تجثث رجله في أباض
سوف تدنيك من لميسَ سَبَنْتَا ... ةٌ أمارت بالبول ماءَ الكُراض
فهي قوداء أُنْفَجَتْ عضداها ... عن زحاليفِ صِفْصف ذي دحاض

ويقول في آخرها:

إننا معشر شمائلنا الصبْـ ... ـر إذا الخوف مال بالأخفاض
نُصُرٌ للذليل في ندوة الحي ... مرَائيب للثأي المنهاض

لم يَفُتْنَا بالوتر قَوْمٌ وللضَّـ ... يم رجالٌ يرضون بالإعماض
فسلي الناس إن جهلت وإن شئـ ... ت قضى بيننا وبينك قاضي

ومن قوله:

لقد زادني حبًّا لنفسيَ أنني ... بغَيضٌ إلى كل امرىء غير طائل
وأني شقيٌّ باللئام ولا ترى ... شقياً بهم إلا كريم الشمائل

ومن قوله يهجو بني تميم:

لو حان وِرد تميمٍ ثم قيل لها ... حوض الرسول عليه الأزد لم تزد
أو أنزل اللّه وحياً أن يعذبها ... إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد
لا عز نصر امرىء أضحى له فرس ... على تميم يريد النصر من أحد
لو كان يخفي عَلَى الرحمٰن خافية ... من خلفه خفيت عنه بنو أسد

النثر

الخطابة:

كان ظهور الإسلام بالدعوة العظمى من أهم الأسباب التي بلغت بالخطابة غاية كمالها، وجعلت الأمر في أيدي رجالها. فإن الدعوة إلى الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقمع الفتن، وردع البدع، وتحميس الجند، كل أولئك من أغراض الخطابة. وكان لها من آي القرآن وحججه مَعِينٌ لا ينضب، ومدد لا ينفذ. ولما اختلف المسلمون بعد مقتل عثمان وتعددت الفِرَق رقت الخطابة رقيًّا عظيماً، لاعتماد كل حزب عليها في نشر نحلته، وتأييد دعوته.

وأهم ما يميزها في هذا العصر عذوبة ألْفاظها، ومتانة أسلوبها، وقوة تأثيرها واقتباسها من القرآن وانتهاجها منهجه في الإرشاد والإقناع، وابتداؤها بحمد اللّه والصلاة على رسوله.

وظل العرب على ما ألفوه في الجاهلية من لَوْث العمامة واتخاذ المِخْصرة والوقوف على نشز من الأرض، والخطبة من قيام، إلا الوليد بن عبد الملك فإنه خطب وهو جالس.

وجملة القول أن ليس في عصور اللغة عصر زَها بالخطابة وحفِل بالخطباء كهذا العصر لانصراف العرب عن الشعر إليها، واعتمادهم في الدين والسياسة عليها.

أشهر خطبائه الرسول ﷺ، والخلفاء الراشدون، وسَحبان وائل وزياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف، وقطَرِيُّ بن الفُجاءة.

obeikandi.com

٢٣ ـ محمد رسول الله ﷺ
٥٧١ ـ ٦٣٣ م
٥٣ ق هـ ـ ١١ هـ

مولده ونشأته وبعثته:

وُلد سيدنا محمد بن عبد المطلب بن هاشم القرشي في مكة صباح اليوم التاسع أو الثاني عشر من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، أو اليوم العشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ للميلاد، في مهد اليُتم والعُدْم، فقد استوفى أبوه ظِمْء حياته حين كان هو جنيناً. ولم يكد يحبو للسادسة من عمره حتى استأثر الله بأمه، فحضنه جده سنتين حضانة إعزاز ومحبة. ثم أوصى به قبل وفاته إلى أبي طالب شقيق أبيه، فكفله على رقة حاله وكثرة عياله. ولو جرى الأمر على منهاج الطبيعة لشب محمد على أخلاق اليتامى وعادِ الجاهلية، ولكن الله تولى تأديبه وتهذيبه، فكمله بالعقل الرجيح، والخلق السجيح، والنفس الرضية، والحياة الوقور، والحلم الرفيق، والصبر المطمئن، والصفح الجميل، واللسان الصادق، والذمة الوثيقة، والجأش القوي، والفؤاد الجميع، ثم طهره من أرجاس الوثنية، فلم يشرب الخمر، ولم يأكل مما ذبح على النُّصُب، ولم يشهد للأوثان عيداً ولا حفلاً، وسمت نفسه الكبيرة على حداثتها إلى ابتغاء الرزق بحيلته وكده، فتصرف في التجارة على عادة قومه حاسراً لها عن ساقه ويده. وشاعت له في الناس فضائل الصدق والحذق والأمانة، فطلبت إليه السيدة خديجة بنت خويلد إحدى عقائل القرشيين وغنياتهم أن يتجر في مالها، فسافر إلى الشام مع خادمها ميسرة فنجحت سفرته وربحت صفقته. ثم ارتد إلى مكة فهزّ من عطف السيدة ما رأت من جزالة الرِّبح وأمانة الرابح فخطبته إلى نفسها، وهي في سن الأربعين وهو في حدود الخامسة والعشرين، فرضي زواجها، وخطبها عمه إلى عمها، وكان لها من جليل الأثر في الإسلام سهم ربيح، ثم مضى الرسول يضرب في الآفاق إلى الأسواق يكسب لأهله، وينمي ثروة زوجه؛ ونفسه عازفة عن مُتَع الحياة، صادفة عن لذاذة العيش، فلم يطمع في ثراء ولم يطمح إلى منصب، بل كان يُخلي ذرعه من صوارف الدنيا الليالي الطوال فيعتكف في غار حراء يتعبد ويتأمل، ويتجه بروحه الصافي اللطيف إلى الملأ الأعلى حتى أوحي إليه

---

٢٣ ـ انظر ترجمته في: كتب السيرة والتاريخ والحديث وغيرها. مثل: سيرة ابن هشام، لابن إسحاق، والروض الأنف، للسهيلي، وعيون الأثر، لابن سيد الناس، وإنسان العيون، المعروف بالسيرة الحلبية، وسبل الهدى والرشاد، المعروف بالسيرة الشامية، وتاريخ الإسلام للذهبي، والطبقات الكبرى، لابن سعد، والكامل في التاريخ، لابن الأثير، والبداية والنهاية، لابن كثير، وتاريخ الأمم والملوك، للطبري، ومشاهير ابن حبان والاكتفاء وغيرهم كثير.

في هذا الغار بالرسالة والمعجزة وعمره يومئذ أربعون سنة قمرية وستة أشهر. فـَقلب إلى زوجه مضطرباً فطمأنته وقالت له: والذي نفس خديجة بيده لا يخزيك اللّه أبداً! إنك لتصل الرحم، وتصْدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. وفتر الوحي مدة، ثم نزل على قلبه الروح الأمين بقوله اللّه تعالى: ﴿يَـأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[1] فقام بأعباء الرسالة والتبليغ ثلاث حجج في طي الخفاء. ثم أمر أن يصدع بالدعوة، فعالن بها قريشاً وسفه أحلامها، وعاب أصنامها، فكاشفوه بالعداء، وقصدوه بالإيذاء. ونصبوا له الحبائل، وتربصوا به الدوائر، وهو يتلقى كل ذلك بجُنَّةِ الصبر وعدَّة الإيمان، ومن ورائه عمه أبو طالب يذود عنه ويحميه، وزوجه السيدة خديجة تواسيه وتقويه، حتى سلخ على هذه الحال الشديدة عشر سنين. وفي السنة العاشرة من رسالته فجعه الموت في ذلك العم النبيل، وفي تلك الزوجة الفاضلة في يومين متقاربين، فاشتد عليهما حزنه، وخرج بعدهما في مكة مقامه. فانتوى الهجرة بالمسلمين إلى المدينة ـ وقد أسلم فيها كثير من الأوس والخزرج ـ فأحس المشركون منه هذا العزم فأتمروا به ليقتلوه. ولكنه خرج ليلة اجتماعهم على قتله هو وصديقه أبو بكر إلى المدينة تكلؤهما عين لا تغفو وقوة لا يقام لها بسبيل. فبلغاها يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٣ من مولده، وهو يوافق اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ٦٢٢ م. فكانت هذه الهجرة المباركة مبدأ لعلو كلمته وانتشار دعوته وتمام نصرته. واستمر يجاهد المشركين. يجادلهم بالقرآن، ويجالدهم بالسيف، حتى انحسر العمى وانجاب الشرك، وعلمت شمس التوحيد في أفق الوجود.

وحينئذ نزل قول اللّه تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[2] (فلم يأت على نزول هذه الآية الكريمة ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول بالحمى ولحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى يوم الاثنين ١٣ من ربيع الأول سنة ١١ هجرية، ٨ من يونيو سنة ٦٣٢ ميلادية.

صفته:

وصفه بعض من رآه قال: كان رسول اللّه ﷺ فخماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطولَ من المربوع وأقصر من المشذَّب، عظيمَ الهامة، رجُلَ الشعر، إن انفرقت عقيقته فرق وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وَفره؛ أزهَر اللون، واسع الجبين، أزجَّ الحواجب سوابغَ من غير قَرن، بينهما عِرق يُدرُّه الغضب، أقنى العرنينِ له نور يعلوه،

---

(١) سورة: المدثر: الآية: ١ ـ ٣.

(٢) سورة: المائدة، الآية: ٣.

ويحسبه من يتأمله أشمَّ؛ كثَّ اللحية، أدعجَ، سهلَ الخدين، ضليع الفم، أشنب مفلجَ الأسنان، دقيق المَسْرُبة، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة؛ معتدلَ الخلق بادناً متماسكاً سواءَ البطن والصدر، بعيدَ ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، أشعرَ الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحبَ الراحة، شثن الكفين والقدمين، سائلَ الأطراف، سَبْطَ العصب، خمصان الأخمصين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء. إذ زال زال تَقَلَّعاً، ويخطو تكفؤاً، ويمشي هوناً. ذريعَ المِشية، إذ مشى كأنما ينحط من صَبَب، وإذ التفت التفت جميعاً، خافضَ الطرف، نظره إلى الأرض أطولُ من نظره إلى السماء. جُل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام. وكان ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكرة طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، ويتكلم بجوامع الكلم؛ دمثاً ليس بالجافي ولا المَهين. إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبَّها، وإذا تحدث اتصل بها فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح وإذا فرح غضَّ طرفه. جُلّ ضحكة التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام.

فصاحته:

تقلب رسول اللّه ﷺ في أخلص القبائل منطقاً وعذبها بياناً؛ فوُلد في بني هاشم، ونشأ في قريش، واسترضع في بني سعد. فكان أفصح العرب لساناً بالفطرة. وقد حدَّث بذلك عن نفسه فلم يُزَيف حديثه ولم يُدفع قوله. وفصاحة الرسول أشبه بالإلهام والفيض، فلم يعانها ولم يتكلفها ولم يرتَض لها، وإنما أسلست له الألفاظ وأسمحت له المعاني فلم يَنُدّ في لسانه لفظ ولم يضطرب في أسلوبه عبارة، ولم يعزب عن علمه لغة، ولم يَنْبُ عن خاطره فكرة وكان كلامه كما قال الجاحظ: الكلامَ الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف. استعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السُّوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة، وشُدّ بالتأييد ويسر بالتوفيق. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أصدق ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح من معناه، ولا أبْين عن فحواه، من كلامه ﷺ.

أثر الحديث في اللغة والأدب:

أما أثر هذه البلاغة الروحية والفصاحة النبوية في اللغة وآدابها فأبيْنُ من أن يُبيَّن، فإنه عليه الصلاة والسلام قد اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من قوة الطبع وصفاء الحس ومحض السليقة وثقوب الذهن وتمكن اللسان ومؤازرة الوحي، فكان يقتضب ويتجوز ويشتق، ويلهج بالمذاهب البيانية، ويرتجل الأوضاع التركيبية، ويضع الألفاظ الاصطلاحية، فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان، وسرًّا من أسرار اللسان، يزيد في ميراث اللغة،

ويرفع من قدر الأدب. كقوله عليه الصلاة والسلام: مات حَتْف أنفه. الآن حمي الوطيس. هُدنة على دَخَن. يا خيل اللّه اركبي. لا ينتطح فيها عنزان. وقوله لحادي النساء رويدك! رفقاً بالقوارير. وقوله في يوم بدر: هذا يوم له ما بعده. ناهيك بما استحدثه عليه الصلاة والسلام من أساليب الدين وألفاظ الشريعة مما لم يأت به الكِتاب.

٢٤ ـ عمر بن الخطاب

٥٨٤ ـ ٦٤٤ م

٤٠ ق هـ ـ ٢٣ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو حفص عمر الفاروق بن الخطاب القرشي بعد مولد الرسول ﷺ بثلاث عشرة سنة، ونشأ نشأة الفتيان من قريش، فرعى الماشية صغيراً، ومارس التجارة والحرب كبيراً، ثم أخذ نَفسه بثقافة الأشراف من قومه، فتعلم الكتابة، وتقلب في التجارات بين اليمن والحبشة جنوباً، والشام والعراق شمالاً حتى فخم أمره وعظم قدره. واشتهر في الناس ببلاغة اللسان، وثبات الجنان، وقوة الشكيمة، ومضاء العزيمة، فجلعت له قريش السفارة بينهم وبين قبائل العرب في السلم والحرب. ولما جاء الإسلام عارضه وناهضه ولجَّ في الخصومة والإنكار على متبعيه، والمسلمون يومئذ لا يزيدون على خمسة وأربعين رجلاً وثلاث عشرة امرأة يجتمعون سراً في دار الأرقم المخزومي، فكان الرسول ﷺ يدعو اللّه أن يعز الإسلام به أو بأبي جهل، فآختاره اللّه لهذه السعادة، وشرح صدره للشهادة. وذلك أنه دخل على خَتَنِه يؤنبه ويعذبه على إسلامه. فَلَحَتْه أخته وأخرجت له صحيفة فيها آيات من سورة طه، فلما قرأها تعظمتْ في صدره وقال: أمِن هذا فَرَّت قريش؟ ثم سأل أين الرسول؟ فقيل له في دار الأرقم. قال عمر: «فأتيت فضربت الباب فاستجمع القوم. فقال لهم حمزة: ما لكم؟ قالوا عمر! قال: وعمر! افتحوا له فإن أقبل قبلنا منه، وإن أدبر قتلناه. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فخرج، فتشهدت، فكبَّر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل مكة. قلت يا رسول اللّه ألسنا على الحق؟ قال: بلى! قلت: ففيم الاختفاء؟ فخرجنا صفين أنا في أحدهما وحمزة في الآخر حتى دخلنا المسجد. فنظرت قريش إليّ وإلى حمزة فأصابتهم كآبة شديدة. فسماني رسول اللّه ﷺ الفاروق يومئذ».

---

٢٤ ـ انظر ترجمته في: الإصابة: ترجمة ٥٧٣٨، وحلية الأولياء: ٣٨/١، وصفة الصفوة: ١٠١/١، وأخبار القضاة: ١٠٥/١، والكامل في التاريخ: ١٩/٣، والبدء والتاريخ: ٨٨/٥، والخميس: ٢٥٩/١ و ٢٣٩/٢، واليعقوبي: ١١٧/٢، والأعلام للزركلي: ٤٦/٥.

كان ذلك وسنّه ست وعشرون سنة والأذى قد اشتد بلاؤه بالمسلمين فاحتمل منه نصيبه، وعادى في اللّه صديقه ونسيبه، حتى تسلّل المؤمنون لِواذاً إلى المدينة فارّين من العذاب والفتنة. فلم يشأ عمر الجريء الباسل أن يخفي هجرته، وإنما تقلد سيفه وتنكّب قوسه وأتى الكعبة، وأشراف قريش بفنائها، فطاف وصلّى، ثم أقبل عليهم وقال: «شاهت الوجوه! من أراد أن تَثْكله أمه ويَيْتَم ولده وترملْ زوجته فلْيلْقني وراء هذا الوادي!» فلم يتبعه أحد.

ولم يزل مع رسول اللّه الصاحبَ الأمين يؤيده بسنانه ولسانه، ويرى له الرأي فيقره القرآن في بعض الحوادث، حتى قبض الرسول واختلف الأنصار والمهاجرون فيمن يكون الخليفة، فأيد هو أبا بكر حتى تمت له البيعة. وقام منه في خلافته مقام المستشار المؤتمن والقاضي العدل، حتى حضر الموتُ أبا بكر فلم يجد غيره من عهد إليه بالخلافة فتولاها بقوة المؤمن المخلص، وعزمه القوي الشجاع، وحنكة الشيخ المجرب، وحكمة العبقري الأريب، ووضع يده على ملكوت كسرى وقيصر، وطفق وحده وهو في قلب الصحراء الحجازية يدبره ويسوسه. فيولي الولاة، ويختار القضاة ويُنَصِّب القواد، ويحرك الأجناد، ويبعث الأمداد، ويرسم الخطط، ويخطط المدن، ويسن السُنن، ويقسم الْفيء ويقيم الحدود، مما ينوء بالحكومات ويلتوي على المجالس. وكل ذلك في سداد رأي وثقوب ذهن وبعد نظر ومضاء عزم. وكل ذلك وهو مفترش الغبراء، ويعايش الدهماء، ويتدثر بالثوب الخلَق، ويأتدم بالخل والزيت ولا تزيد نفقته من بيت المال على درهمين في اليوم. ولا تزال خلافته مثل من المُثل العليا في النظام والعدل والأمن. ولكن عمر الذي أرضى اللّه والناس بعدله وفضله، لم يُرْض عبداً مجوسياً اسمه لؤلؤة، إذ نصح له أن يحسن إلى مولاه المغيرة بن شعْبة، وألاّ يستكثر عليه درهمين في اليوم يؤديهما إليه، وهو نجار ونقاش وحداد، فاحتقد عليه هذه النصيحة، ودبّ إليه في الغلس وهو قائم يصلي بالناس في الفجر فطعنه بخنجر ذي نصلين طعناتٍ كانت سبب موته. وذلك ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ هـ.

صفاته ومواهبه:

كان أمير المؤمنين عمر طويلاً جسيماً، أبيضَ شديد الحمرة، أصلعَ أشيبَ، خفيف شعر العارضين، أصهب طرف السبال كبيرَه. وكان رفيقاً رقيقاً إلا إذا وجب الحق فلا تأخذه فيه هَوادة. وقَلَّ مَن سلم من كبار الصحابة وأشراف القبائل من دِرَّته (عصاه). وكان مُحْصَدَ الرأي، محْكَم الحيلة، مُوثَّق الحجة، شديد الورع، طاهر اليد، واسع العلم، حافل الخاطر بالحكمة، بارع الفقه في الدين، إذا ذكرتَ علياً ببلاغه اللسان ذكرته هو ببلاغه العقل. وحسبك أن تقرأ له عهوده وكتبه للقضاة والولاة والقادة فترى منه الفقيه المجتهد، والإداري

العلوم والسياسي المحنك، وكل ذلك دون تلقين ولا وحي ولا اقتداء، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء.

نموذج من عهوده وخطبه:

ذلك عهده إلى أبي موسى الأشعري حين ولاه القضاء، وقد اعتبره جمهور من القضاة أساساً للنظام وقاعدة للأحكام وما أجدره بذلك!

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، سلامٌ عليك. أما بعد فإن القضاء فريضةٌ محكمة وسنة متبعة. فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلمٌ بحق لا نفاذ له. آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً. لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة. ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أقربها عند الله وأشبهها بالحق. واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهي إليه. فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاء أو نسب، فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان، وإياك والغلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر؛ فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس. ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله، فما ظنك بثواب غير الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته؟ والسلام.

ومن خطبة له رضي الله عنه:

أيها الناسُ! إنه أتى عليّ حينٌ وأنا أحسبُ أنّ من قرأ القرآن إنما يريد الله وما عنده. ألا وإنه قد خُيّل إليّ أن أقواماً يقرؤون القرآن يريدون ما عند الناس. ألا فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه بأعمالكم، فإنما كنا نعرفكم إذ الوحيُ ينزل، وإذ النبي ﷺ بين أظهرنا، فقد رُفع الوحيُ وذهب النبيُّ عليه السلام، فإنما أعرفكم بما أقول لكم: ألا فمن أظهر لنا خيراً، ظننا به خيراً وأثنينا به عليه، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه.

اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طُلَعة. وإنكم ألا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية. إن هذا الحقّ ثقيلٌ مريء، وإن الباطل خفيفٌ وبيء، وترْكُ الخطيئة خيرٌ من معالجة التوبة.

٢٥ ـ علي بن أبي طالب
٦٠٠ ـ ٦٦١ م
٢٣ ق هـ ـ ٤٠ هـ

نشأته وحياته:

ولد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة، ورُبِّيَ مع الرسول في بيته تخفيفاً عن أبيه. ولما بعث النبي ﷺ بالرسالة كان عليٌّ مراهقاً، فآمن به وشب على حبه، وتغلغلت أصول الدين في قلبه، وخاطر بنفسه في سبيل الرسول ليلة هجرته، وأبلى البلاء الحسن في تأييده ونصرته، وشهد الغزوات كلها إلا تبوك فقد خلَّفه النبي فيها على أهله. فلما لحق الرسول بربه كان عليٌّ يرى أنه أحق بخلافته لمكانته من شرف القرابة والصهر. فلما بايع المسلمون أبا بكر وقام بعهده من بعده عمر، وأخطأته الشورى إلى عثمان، ناوص الجرةَ ثم سالمها، متحاملاً في كل ذلك على نفسه. وقُتل عثمان فبايعه الناس في الحجاز، وامتنع معاوية وأهل الشام معه غضباً لمقتل عثمان وقعود عليٍّ عن القتلة. وكان ما كان من الفتنة التي حلّلت العُقَد، وأوهنت العُرى، وقسمت المسلمين إلى طائفتين تعادتا واقتتلتا حيناً من الدهر. ثم قرت السيوف في الأغماد دون أن يستوثق الأمر لأحد الرجلين. وائتمر ثلاثة من الخوارج بزعماء هذه الفتنة الثلاثة: معاوية وعمرو بن العاص وعلي. فكان أمير المؤمنين نصيب ابن ملجَم، فقتله غيلة بمسجد الكوفة سنة ٤٠ هـ وقد مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلا أياماً.

أخلاقه ومواهبه:

كان عليّ كرم اللّه وجهه قوي العضل صادق البأس شجاع القلب لا يبالي أوَقع على الموت أو وقع الموت عليه. وكان حُجة في الفقه، قُدوةً في الورع، شديد الشكيمة في الحق، قوي الثقة بالنفس، لا يعرف الهوادة في الدين ولا المرونة في الدنيا؛ فكانت هذه الخلال الكريمة من أنصار معاوية الداهية في الخلاف عليه. ولا نعلم بعد رسول اللّه فيمن سلف وخلف أفصح من علي في المنطق، ولا أبلَّ ريقاً في الخطابة. كان حكيماً تتفجر الحكمة من بيانه، وخطيبًا تتدفق البلاغة على لسانه، وواعظاً ملء السمع والقلب، ومترسلاً بعيد غور الحجة، ومتكلماً يضع لسانه حيث شاء. وهو بالإجماع أخطب المسلمين وإمام

---

٢٥ ـ انظر ترجمته في: تاريخ الأمم والملوك: ٨٣/٦، وصفة الصفوة: ١١٨/١، والبدء والتاريخ: ٧٣/٥، وتقاتل الطالبين: ص ١٤، وحلية الأولياء: ٦١/١، وشرح نهج البلاغة: ٥٧٩/٢، ومنهاج السنة: ٢/٣، وتاريخ الخميس: ٢٧٦/٢، والإسلام والحضارة العربية: ١٤١/٢.

المنشئين، وخطبه في الحث على الجهاد، ورسائله إلى معاوية، ووصفه الطاووس والخفاش والدنيا، وعهده للأشتر النخعي إن صح ذلك، تعد من معجزات اللسان العربي، وبدائع العقل البشري. وما نظن ذلك قد تهيأ له إلا لشدة خلاطه للرسول ومِرَانته منذ الحداثة على الخطابة له والخطابة في سبيله.

نموذج من كلامه:

كلام أمير المؤمنين يدور على أقطاب ثلاثة. الخطب والأوامر، والكتب والرسائل، والحكم والمواعظ. وقد جمعها على هذا النسق الشريفُ الرَّضِيّ في كتاب سماه (نهج البلاغة) لأنه كما قال بحق: «يفتح للناظر فيه أبوابها، ويقرب عليها طِلابها، فيه حاجة العالم والمتعلم، وبغية البليغ والزاهد، ويضيء في أثنائه من الكلام في التوحيد والعدل ما هو بلال كل غلة، وجلاء كل شبهة» والصحيح أن أكثر ما في هذا الكتاب منحول مدخول.

فمن خطبه عليه السلام وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندر أي الأمرين أرشد. فصفق عليه السلام إحدى يديه على الأخرى ثم قال: هذا جزاء من ترك العقدة! أما واللّه لو أني حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل اللّه فيه خيراً، فإن استقمتم هديتكم، وإن اعوججتم قوَّمكم، وإن أبيتم تداركتكم، لكانت الوثقى. ولكن بمن وإلى من؟ أريد أن أُدَاوَى بكم وأنتم دائي، كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلْعها معها. اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدَويَّ، وكلت النَّزعَةُ بأشطان الرَّكِيّ! أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأُوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال فوَلِهوا وَله اللقاح إلى أولادها، وسلَبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زَحْفاً زَحْفاً، وصفًّا صفًّا، بعض هلك، وبعض نجا، لا يُبَشِّرون بالأحياء، ولا يعزّوْن بالموتى. مُرْه العيون من البكاء، خُمْص البطون من الصيام، ذبْل الشفاه من الدعاء، صفْر الألوان من السهر، على وجوههم غَبرة الخاشعين. أولئك إخواني الذاهبون! فحق لنا أن نظمأ إليهم ونَعض الأيدي على فراقهم.

إن الشيطان يُسْنِّي لكم طُرقه، ويريد أن يحلّ دينكم عقدة عقدة، ويعطيكم بالجماعة الفرقة. فاصدفوا عن نزغاته ونفَثاته، واقبلوا النصيحةَ ممن أهداها إليكم وأعقِلوها على أنفسكم.

ومن كلام له عليه السلام:

إلا وإن الخطايا خيل شمْسٌ حُمِل عليها أهلها، وخُلعت لجمها فتقحَّمت بهم في النار. وإن التقوى مطايا ذُلُل حُمِل عليها أهلها، وأُعطوا أزمَّتها فأوردتهم الجنة. حقٌّ وباطل، ولكلٍّ أهل. فلئن أمر الباطل فقديماً فعل، ولئن قلّ الحق فلربما ولعل، ولقلَّما أدبر شيء فأقبل. شُغل مَنِ الجنة والنار أمامه. ساع سريعٌ نجا، وطالبٌ بطيء رجا، ومقصر في النار

هَوى، اليمين والشمال مضلة، والطريق الوسطى هي الجادّة، عليها باقي الكتاب وآثار النبوة، ومنها منفذ السنة، وإليها مصير العاقبة.

٢٦ ــ سحبان وائل
٠٠٠ ـ ٦٧٤ م
٠٠٠ ـ ٥٤ م

نشأته وحياته:

نشأ سحبان بن زفَر بن إياد في الجاهلية بين قبيلة وائل من ربيعة، ثم دخل في الإسلام عند ظهوره، واتصل بمعاوية، فحسن موقعه لديه، واعتمد في يوم الكلام عليه. وكان سحبان خطيباً غَمْر البديهة، قوي العارضة، متصرماً في فنون الكلام، كأنما يتلو عن ظهر قلبه. وبه يُضرب المثل في كل ذلك.

قدم على معاوية وفد من خراسان فطلب سحبان فلم يجده في منزله، فاقتضب من حيث كان وأُدخل عليه. فقال له معاوية: تكلم. فقال: أحضروا إليَّ عصا. قالوا وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين؟ قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه. فضحك معاوية وأمر له بها. فلما جاءته ركلها ولم ترق في نظره، فجاءوه بعصاه، وخطب من صلاة الظهر إلى أن حان وقت العصر ما تنحنح ولا سعل ولا توقف ولا تلكأ ولا ابتدأ في معنى وخرج منه وقد بقي فيه شيء. فما زالت تلك حاله حتى دهش منه الحاضرون. فأشار إليه معاوية بيده فأشار إليه سحبان: لا تقطع عليَّ كلامي! فقال معاوية: الصلاة! قال هي أمامك! نحن في صلاة وتحميد، ووعد ووعيد. فقال معاوية! أنت أخطب العرب، قال سحبان: والعجم والجن والإنس. وهذه الحادثة تدل على قوته وجُرأته وغزارة بحره، ومعرفته لقدره. ولكن المأثور من خطبه قليل في جانب شهرته. ولعل خلوه من الجاه والرياسة، وبعده عن الأحزاب والسياسة، وطول خطبه ووحدة موضوعها صرف الرواة عنه. كانت وفاته في خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ.

نموذج من خطبه:

إن الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار. أيها الناس فخذوا من دار مَمرِّكم، إلى دار مقركم، ولا تهتكوا أستاركم، عند من لا تخفى عليه أسراركم؛ وأخرجوا من الدنيا قلوبكم،

---

٢٦ ـ انظر ترجمته في: بلوغ الأرب: ١٥٦/٣، وشرح المقامات للشرشي: ٢٥٣/١، وتهذيب ابن عساكر: ٦٥/٦، وخزانة الأدب: ٣٤٧/٤، ومجمع الأمثال: ١٦٧/١، والأعلام للزركلي: ٧٩/٣.

قيل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها حييتم، ولغيرها خلقتم، إن الرجل إذا هلك، قال الناس ما ترك؟ وقالت الملائكة ما قدم؟ فقدموا بعضاً يكون لكم، ولا تخلفوا كلاً يكون عليكم.

٢٧ ـ زياد ابن أبيه

٦٢٢ ـ ٦٧٣ م

١ ـ ٥٣ هـ

نشأته وحياته:

كان للحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب أَمَةٌ بَغِيٌّ تُدعى سُمَيَّة، وعبد رومي يسمى عُبَيداً. فزوَّج العبد من الأمة. فولدت على فراشه زياداً في السنة الأولى من الهجرة!! وقد ضُرِبَتْ فيه بِعرق أَشِب فنشأ أريباً أديباً. ولم يكد أمر المسلمين يتسع ويتسق حتى دلت عليه كفايته، فاستكتبه أبو موسى الأشعري والي البصرة من قِبَل عمر، فتجلى نبوغه وظهر حذقه. ثم تقلبت به الأمور في عهد عمر حتى شاء أن يعزله عن عمله «لا للخيانة ولا للعجز، وإنما كره أن يحمل على الناس فضل عقله» على أن عمر كان يستكفيه المهم من أموره فيكفيه غيرَ عاجز ولا مقصر. وخطب بين يديه يوماً في حضرة المهاجرين والأنصار خطبة لم يسمعوا مثلها. فقال عمرو بن العاص: للَّه در هذا الغلام!! لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه. وبلغ من إعجاب أبي سفيان به أن اعترف بعد إسلامه للعلية قريش وفيهم عليٌّ أنَّ زياداً ابنه، اشتملت عليه أمه منه وهو مشرك، ولكن خوفه من عمر منعه أن يلحقه بنسبه. ولما تولى الخلافة أمير المؤمنين عليّ وجد في زياد اليد المصرَّفة، والرأي الجميع، واللسان الذرب، فاستعمله، فراض له الأمور، وسد الثغور، وأحكم السياسة. وحاول معاوية أن يستميله إليه فأعياه حتى قتل عليّ، فرأى أن يستخلص مودته باستلحاقه بنسب أبيه وادعائه أخاً له، فصار يدعى بعد ذلك زياد بن أبي سفيان. ولكن كثيراً من الناس لا يعترف له بهذا النسب، ثم ولاه معاوية المصريين، وهو أول من جمعا له فكان يقيم في البصرة ستة أشهر وفي الكوفة مثلها. كانت وفاته بالطاعون سنة ٥٣ هـ.

أخلاقه ومواهبه:

كان زياد من ذوي الأحلام الوافرة والأذهان الحاضرة واللسان الفتيق، فقال فيه

---

٢٧ ـ انظر ترجمته في: تاريخ الطبري: ١/٢٤٦٥ ـ ٢٤٦٦، ٢/٦٦ ـ ٨٧، ٣/٥٨، ومروج الذهب: ٥/١٥ والأغاني: ١٣/٣١ ـ ٧٥، ١٦/٣ ـ ٩، ٢١/٢١ ـ ٤٠ ومعجم البلدان: ١/٩٠٥ ومقدمة ابن خلدون: ٣/٥ ـ ١٥ وابن خلدون: البدء والتاريخ ٦/٢، وخزانة الأدب: ٢/٥١٧، ودائرة المعارف الإسلامية ٤/١٢٣٤ ـ ١٢٣٥، والأعلام للزركلي: ٣/٥٣.

الشعبي: ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً؛ فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً».

وزياد من أقوى العمد التي قام عليها عرش بني أمية. رمى به معاوية وجوه الفتن فلمّ الشعث وشدّ السلطان، واشتد في العقوبة! فأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، وقتل المعلن، واستصلح السر، وخافه الناس خوفاً شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً، وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل والمرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، ولا يغلق أحد بابه. وهو أول من أعلن الحكم العرفي في الإسلام بخطبته المعروفة بالبتراء وهي التي خطبها حين قدم البصرة.

نموذج من كلامه: خطبته البتراء

أما بعد: فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغيّ المُوفي بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور التي يَنْبُتُ فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمدي الذي لا يزول. إنه ليس منكم إلا من طرفت عينه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تُسبقوا إليه، من ترككم الضعيف يُقهر، والضعيفة المسلوبة بالنهار لا تنصر، والعدد غير قليل، والجمع غير متفرق. ألم يكن منكم نُهاةٌ يمنعون الغُواة عن دَلَج الليل وغارة النهار؟! أقربتم القرابة، وباعدتم الدين. تعتذرون بغير العذر، وتغضون على النكر، كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صنيعَ من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً! ما أنتم بالحلماء، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرَم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كُنُوساً في مكانس الريب. حرام عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً. إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، وإني لأقسم بالله لآخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول: انجُ سعدُ فقد هلك سُعيد، أو تستقيم قناتكم. إن كِذْبة الأمير بَلْقاء مشهورة، فإذا تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي. فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيّ، واعلموا أن عندي أمثالها، من نُقِبَ منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله. فإياي ودلج الليل فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه. وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم، وإياي ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة. فمن أغرق قوماً أغرقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه. ومن نقب قلباً نقبنا عن قلبه. ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً. فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدي ولساني. ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا

ضربت عنقه. وقد كان بيني وبين قوم إحَنٌ فجعلت ذلك دَبْرَ أذني وتحت قدمي. إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّلُّ من بُغضي لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له ستراً، حتى يبدي لي صفحته فإذا فعل ذلك لم أناظره. فاستأنفوا أموركم. وأعينوا على أنفسكم، فرُبَّ مبتئس بقدومنا سيُسر، ومسرور بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس! إنا قد أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان اللّه الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء اللّه الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا. ولكم علينا العدل فيما وَلينا. فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا. وأيم اللّه إن لي فيكم لصَرْعى كثيرة، فليحذر كل منكم أن يكون من صَرْعَاي!

٢٨ ـ الحجَّاج بن يوسف
٦٦١ ـ ٧١٤ م
٤١ ـ ٩٥ هـ

نشأته وحياته:

ولد أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٤١ في مهد الخمول والفقر. فزاول مع أبيه تعليم الصبية بالطائف؛ إلا أن نفسه الرغيبة الطامحة ربأت به عن الضعَّة فلفت إليه بذكائه رَوْحَ بن زنْباع الجذامي أحد أعوان عبد الملك بن مروان فجعله في شُرْطته. ورأى الخليفة انحلال عسكره فشكا ذلك إلى رَوح بن زنباع فدله على الحجاج، فقلده إمرة الجند فسلكهم في النظام وردهم إلى الطاعة. ثم اشتهر أمره ونبه ذكره بقيادة الجنود إلى عبد اللّه بن الزبير، وقد دعا إلى نفسه بالحجاز، فحاصره بمكة ثم قتله وأزال ملكه. فثبتت كفايته وسمت مكانته في نفس عبد الملك، فولاه العراق وهو يضطرب بفتنة الشيعة، ويضطرم بثورة الخوارج، فعسفهم عسفاً شديداً أذل أعناقهم، وطأطأ إشرافهم، وعاد بهم إلى حظيرة الجماعة يتعثر في أشلائهم، ويخوض بهم في دمائهم.

وبقي طول حياته بالعراق دِعامةً لمُلك عبد الملك وابنه الوليد يضبطه ويبسطه حتى طبق ما بين الشام والصين. ثم مات بواسط سنة ٦٥ هـ.

---

٢٨ ـ انظر ترجمته في: البدء والتاريخ: ٢٧/٦، والجرح والتعديل: ١٦٨/٣، وتعجيل المنفعة: ص ٨٧ وتاريخ البخاري: ٣٧٢/٢، والمعارف: ص ٣٩٥، ٥٤٨، ومروج الذهب: ٣٦٥/٣، والبدء والتاريخ: ٢٧/٦، ومعجم البلدان: ٣٨٢/٨، وشذرات الذهب: ١٠٦/١، والأعلام للزركلي: ١٦٨/٢.

أخلاقه ومواهبه:

كان الحجاج طماحاً إلى السلطان والمجد، فسلك إليهما سبيل الظلم والقسوة، وتذرع لنيلهما بالفصاحة والقوة، ورزقه الله من طلاوة اللسان وقوة الجنان القسط الأوفر، فانتهى أمره إلى السلطان القاهر والكلمة النافذة. قال له عبد الملك يوماً: كل امرىء يعرف عيوب نفسه، فصفْ نفسك ولا تخْف عني شيئاً. فقال: «أنا لجوج حقود حسود. ومتى كانت هذا الصفات في متسلط أهلك الحرث والنسل إلا أن يدين له الناس ويذلوا» وكان فصيحاً قوي الحجة لا يكاد يعدله في ذلك أحد من أهل زمنه. قال مالك بن دينار: «ما رأيت أحداً أبين من الحجاج: إنه كان ليَرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم إليه حتى لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين». مع أنه قتل منهم بالصبر مائة وعشرين ألفاً، وتوفي وفي سجونه منهم خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة.

نموذج من خطبه:

لما قدم الحجاج أميراً على العراق دخل المسجد مُعْتَمًّا بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه، وصعد المنبر وهو متقلد سيفه مُتنكب قوسَه، ومكث ساعة لا يتكلم. فقال الناس بعضهم لبعض: قبح الله بني أمية إذ تستعمل مثل هذا على العراق! وَهمَّ عُمَير بن ضابىء البُرجمي أن يرجمه، فمنعه الناس حتى يروا عاقبة أمره، فلما رأى الحجاج عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال:

أنا ابن جلا وطلَّاع الثنايا ... متى أَضعِ العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة! إني لأرَى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها! وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللِّحى!

هذا أوان الشد فاشتدِّي زِيَم ... قد لفَّها الليلُ بسوَّاق حُطَم
ليس براعي إبل ولا غنم ... ولا بجزَّار على ظهر وَضم
قد لفها الليل بعَصْلَبيّ ... أروَع خرَّاج من الدوِّيّ
مهاجر ليس بأعرابي
قد شمرت عن ساقها فشدُّوا ... وجدَّت الحربُ بكم فجدُّوا
والقوسُ فيها وَترٌ عُرُدُّ ... مثلُ ذِراع البكر أو أشدّ
لا بدّ مما ليس منه بُد!

إني والله يا أهل العراق ما يُقعقَعُ لي بالشنان، ولا يُغمزُ جانبي كتَغْماز التنين. ولقد فُررتُ عن ذكاء، وفُتشْتُ عن تجربة. وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني أمرَّها عوداً وأصلَبها مكسِراً فرماكم بي. لأنكم طالما أوضَعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال.

obeikandi.com

واللّه لأحزمنكم حزْم السَّلَمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل؛ فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم اللّه فأذاقها اللّه لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. وإني واللّه ما أقول إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فرَيْت. وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أَعْطياتِكم وأن أوجهكم إلى محاربة عدوكم مع المهلّب بن أبي صفرة. وإني أقسم باللّه لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه.

الكتـــابـــة

كان أولياء العرب في الصدر الأول كتّاباً بالطبع يُملون أو يكتبون ما يريدون بأسلوب مُوجز ولفظ فصيح. فلما امتدَّت ظلال الخلافة وفاضت موارد الفيْء اضطرهم ضبط ذلك إلى إنشاء الدواوين فدوَّنها عمر. ثم عهد الخلفاء بالكتابة فيها إلى العرب والموالي والمتعربين. وظلت كتابة الخراج في الأقاليم بلغة أهل المصر: ففي العراق وفارس بالفارسيّة، وفي الشام بالرومية، وفي مصر بالقبطية حتى حذقها من العرب طائفة صالحة سدوا حاجة الدواوين فحوِّلت كلها إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد.

ثم ثقلت أعباء الدولة على الخلفاء فاتخذوا نواميس من كتاب العرب وأدباء الموالي، وفي هؤلاء مَنْ وقف على أنظمة الفرس والروم فوضعوا للرسائل قيوداً وحدوداً أوشكت أن تصير بها صناعة.

أما أسلوبها فكان جزلَ الألفاظ، فخم التراكيب، واقفاً عند الغرض، خالياً من التطويل والتجميل والمبالغة، جارية فيه الضمائر على قانون الوضع، فلا تستعمل ضمائر الجمع في كلام المتكلم وخطاب الواحد وكانت تُبدأ بالبَسْملة وقولهم: من فلان إلى فلان، أما بعد. أو إني أحمد إليك اللّه الذي لا إله إلا هو. وتختم بالسلام، أو بقولهم: والسلام على من اتَّبع الهدى. فلما وُلِّيَ الخلافة الوليد بن عبد الملك أمر بتجويد القراطيس، وتفخيم الخطاب، وألا يكاتبَ بمثل ما تكاتب به السوقة. وجرى العمل على ذلك من بعده، حتى استُخلف عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد بن عبد الملك، فحملهما الورع ومَقْتُ البدعة على الرجوع بالكتابة إلى نهج السلف.

على أن نظام الكون وطبيعة الناس في هذا العهد أَبَيَا هذا الجمود، فجاء عبد الحميد الكاتب فأسهب في الرسائل ونمقها ورققها وأطال التحميدات في أولها وتبعه في ذلك سائر الكتاب. وجملة القول أن النثر في أربعين سنة خطا في سبيل الكمال بفضل الدين والفتوح خطوة واسعة، فانتقل من السجعات القصيرة المفككة، والمعاني العامة المجملة، إلى هذا

الأسلوب المحكم الفقِر، المطرد السياق، المختلف الغرض، العميق الأثر، كما ترى في رسائل الإمام عليّ وخطبه وهو تقدم سريع لم يظفر بمثله الشعر.

الكُتّـاب

٢٩ ـ عبد الحميد بن يحيى

٠٠٠ ـ ٧٥٠ م

٠٠٠ ـ ١٣٢ هـ

نشأته وحياته:

نشأ أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بالشام من سلالة غير عربية، ونُسب إلى بني عامر نسبة وَلائية. ثقفَ الكتابة على سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب سره ثم أخذيمارس تعليم الصبية يجوب إلى ذلك البلد بعد البلد حتى علم بمكانته مروان بن محمد فاستكتبه أيام ولاية على أرمينية فكتب له ونفق عنده وتأكدت بينهما المودة. فلما جاء البشير بمبايعة أهل الشام لمروان بالخلافة سجد للّه شكراً وسجد أصحابه إلا عبد الحميد. فقال له مروان. لم لا تسجد؟ فقال: ولم أسجد؟ أعلى أن كنت معنا فطرت عنا؟ فقال: إذن تطير معي. فقال: الآن طالب السجود. وسجد. فاتخذه مروان كاتب دولته. ولما هاله خفوق الألوية السود ودُنُوُّ أبي مسلم وتتابع الفشل قال لعبد الحميد: قد احتجت أن تصير مع عدوي، وتظهر الغدر بي، فإن إعجابهم بأدبك، وحاجتهم إلى كتابتك، تحوجهم إلى حسن الظن بك. فإن استطعت أن تنفعني في حياتي، وإلا لم تعجز عن حفظ حُرَمي بعد مماتي. فقال له عبد الحميد: إن الذي أشرت به عليّ أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي، ما عندي إلا الصبر حتى يفتح اللّه عليك أو أقتل معك، وأنشد:

أسِرُّ وفاء ثم أظهر غَدرة ... فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره؟

ومكث معه حتى قتل مروان بمصر، فلجأ إلى صديقه عبد اللّه بن المقفع بالبحرين ففاجأه الطلب وهو في بيته. فقال الذين دخلوا عليهما: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل منهم: أنا. مخافة على صاحبه. وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع لو لا أن صاح بهم عبد الحميد قائلاً: ترفقوا بنا فإن لكل منا علامات، فوكّلوا بنا بعضكم وليمض البعض الآخر إلى من وجهّكم فيذكر له تلك العلامات، ففعلوا وأخذ عبد الحميد فقتل سنة ١٣٢ هـ.

---

٢٩ ـ انظر ترجمته في: مروج الذهب: ٢٦٣/٣، وثمار القلوب: ص ١٩٦، وأمراء البيان: ٣٨/١ ـ ٩٨، والشرشي: ٢٥٣/٢، وصبح الأعشى: ١٩٥/١٠، والوزراء والكتاب: ٧٢ ـ ٨٣، والصناعتين: ص ٦٩، وعيون الأخبار: ٢٦/١، والبيان والتبيين: ٩/٣، والأعلام للزركلي: ٢٨٩/٣.

أثره في الكتابة:

كانت الكتابة قبل عبد الحميد حديثاً مكتوباً لا ترجع إلى نظام ولا تحور إلى فن ولا تعد في الصناعات الشريفة. فلما تقلدها كانت الحال داعية والنفوس مهيأة إلى فن من الكتابة جديد، فإن تشعُّب أطراف الدولة، وبدوُّ ثمار الحضارة، وزهوُّ النثر والخطابة ودنوَّ العربية من الفارسية وتخَرُّجَ عبد الحميد على سالم مولى هشام، وصلته الوثيقة بابن المقفع، كانت سبباً في ظهور هذا النمط الجديد في أسلوب عبد الحميد. فقد نوع الخطاب موافقة لحال المخاطب، وأوجز وأطنب مراعاة لمقتضى الحال، وتفنن في البدء والختام مطابقة للغرض، وأطال التحميدات في صدور الرسائل، وسار على أثره المترسلون فأصبحت الكتابة صناعة محررة الأصول مميزة الفصول مبيَّنة القواعد.

أسلوبه:

أسلوب عبد الحميد عذب المورد صافي الديباجة، يسبي المشاعر ويفعل بالألباب فعل السحر. وقد عرف الناس له ذلك حتى إن أبا مسلم الخراساني أبى أن يقرأ الكتاب الذي كتبه إليه عن لسان مروان يستجلبه به ويستميله، ثم أحرقه إشفاقاً على نفسه من تأثيره؛ وكتب على جُذَاذة منه إلى مروان:

محا السيفُ أسطارَ البلاغةَ وانتحى ... عليك ليوثُ الغاب من كل جانب

نموذج من نثره:

كتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان:

أما بعد، فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً لها، وقد كانت أذاقتنا أفاويقَ استحليناها ثم جمحت بنا نافرة، ورمحَتنا موليّة، فَمَلُحَ عذبها، وخشن لينها، فأبعدتنا عن الأوطان، وفرَّقتنا عن الإخوان، فالدار نازحة، والطير بارحة. وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً، وإليكم وجداً؛ فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا. وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار عدونا نرجع إليكم بذل الإسار، والذل شر جار. نسأل الله تعالى الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة، في دار آمنة، تجمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين.

وقال من وصيته للكتَّاب، وفيها دلالة على أن الكتابة صارت صناعة، وأن الكتَّاب أصبحوا جماعة.

. . . . . وإياكم والكِبْرَ والسُّخف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحْنَةٍ، وتحابُّوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليها بالتي هي أليق لأهل الفضل

والعدل والنبل من سلفكم. وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره. وإن أقعد أحداً منكم الكبرُ عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظّموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته.

وكتب في التوصية بشخص: حقّ موصل كتابي عليك كحقه عليّ، إذ جعلك موضعاً لأمله، ورآني أهلاً لحاجته. وقد أنجزت حاجته، فصدّق أمله.

نماذج من النثر

الحِكَمُ:

من حِكَم أبي بكر رضي اللّه عنه قوله:

صنائع المعروف تقي مصارع السوء. الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله. ثلاث من كنَّ فيه كنَّ عليه: البغي والنكث والمكر.

ولعمر رضي اللّه عنه: من كتم سره كان الخيار في يده. مُرْ ذوي القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا. أشكوا إلى اللّه ضعف الأمين وخيانة القويّ.

وقال علي كرم اللّه وجهه: رأي الشيخ خير من جَلَد الغلام. الناس أعداء ما جهلوا. قيمة كل امرىء ما يحسن.

الخطب:

خطب الرسول ﷺ ذات يوم فحمد اللّه بما هو أهله ثم أقبل على الناس فقال:

أيها الناس! إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم. وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم؛ فإن العبد بين مخافتين: أجَل قد مضى فلا يدري ما اللّه فاعلٌ به، وأجَل باق لا يدري ما اللّه قاض فيه. فليأخذ العبدُ من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات. فوالذي نفس مُحمد بيده، ما بعد الموت من مستَعْتَب، ولا بعد الدنيا من دار، إلا الجنة والنار.

وقام أبو بكر يوم السقيفة وقد اختلف المهاجرون والأنصار في أمر الخلافة فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس! نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثرهم ولادة في العرب. وأمسُّهم رحماً برسول اللّه ﷺ. أسلمنا قبلكم، وقُدِّمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: ﴿**والسَّابِقُونَ الأَوَّلون مِنَ المهاجرينَ**

﴿وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾[1] فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفيء، وأنصارنا على العدو. آويتم وواسيتم فجزاكم اللّه خيراً، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش. فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم اللّه من فضله.

وصعد معاوية منبر المدينة فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال:

يا أهل المدينة! إني لا أحب أن تكونوا خلْقاً كخلْق العراق: يَعيبون الشيء وهم فيه. كل امرىء منهم شيعة نفسه. فاقبلونا بما فينا. فإن ما وراءنا شرّ لكم، وإن معروف زماننا هذا منكرُ زمانٍ مضى، ومنكرُ زماننا معروف زمان لم يأت. ولو قد أتى فالرَّتْقُ خير من الفتق، وفي كلٍّ بلاغ، ولا مقام على الرزية.

وخطب الحجاج أهل العراق بعد دير الجماجم قال:

يا أهل العراق! إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والشغاف، ثم مضى إلى الأمخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشّش، ثم باض وفرَّخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً. وقد اتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤمّراً تستشيرونه. فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم وَقْعة، أو يحجزكم إسلام، أو يردكم إيمان؟ ألستم أصحابي بالأهواز، حيث رُمتم المكر وسعيتم بالغدر، وظننتم أن اللّه يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرْفي وأنتم تتسللون لِوَاذاً، وتنهزمون سراعاً. ويوم الزاوية! وما يوم الزاوية! بها كان فشلكم وتنازعكم وبراءة اللّه منكم ونكوص وليه عنكم، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى أعطانها، لا يسأل المرء منكم عن أخيه، ولا يلوي الشيخ على بنيه، حتى عضكم السلاح، وقصمتكم الرماح! ويوم دير الجماجم! وما دير الجماجم؟ بها كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيله، ويذهل الخليل عن خليله. يا أهل العراق! أهل الكفرات والغدرات، والثورة بعد الثورات! إن أبعثكم إلى ثغوركم عللتم وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم، لا تذكرون خشية، ولا تشكرون نعمة. هل استخفكم ناكث واستغواكم غاوٍ واستنصركم ظالم واستعضدكم خالع إلا وثقتموه وآويتموه ونصرتموه ورضيتموه؟ هل شغب شاغب أو نعب ناعب إلا كنتم أشياعه وأنصاره؟ ألم تنهكم المواعظ؟ ألم تزجركم الوقائع؟

ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام! إنما أنا لكم كالظليم الذابّ عن فراخه، ينفي عنه المدَر، ويبعد عنها الحجر، ويكنها من المطر. يا أهل الشام أنتم الجُنة والرداء، وأنتم العدة والغطاء!

---

(١) سورة: التوبة، الآية: ١٠٠.

الرسائل:

كتب أبو عُبَيْدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ينصحانه:

من أبي عُبَيْدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب، سلام عليك، فإنا نحمد إليك اللَّه الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مُهِم، فأصبحت وقد وليتَ أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الصديق والعدو، والشريف والوضيع، ولكل حصة من العدل. فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك. وإنا نحذرك يوماً تعنو فيه الوجوه، وتجبُ له القلوب، وتنقطع فيه الحجج، بحجة ملك قهرهم بجبروته والخلق داخرون له، يَرجون رحمتَه ويخافون عقابه. وإنا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة يرجع في آخر زمانها أن يكون إخوانُ العلانية أعداء السريرة. وإنا نعوذ باللَّه أن تُنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا، فإنا إنما كتبنا إليك نصيحة لك والسلام.

وكتب عبد اللَّه بن معاوية بن عبد اللَّه بن جعفر إلى بعض إخوانه يعاتبه:

أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك. وذلك أنك ابتدأتني بلطف من غير خبرة، ثم أعقبتني جفاء من غير جريرة، فأظلمني أوَّلك في إحائك، وأيأسني آخرُك من وفائك. فلا أنا في اليوم مجمعٌ لك أطراحاً، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة. فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك، فاجتمعنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام.

الوصايا:

أوصى عليّ بن أبي طالب ولده الحسن قال:

احفظ عني أربعاً وأربعاً لا يضرك ما عملت معهن: أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة العُجب، وأكرم الحسب حُسْن الخُلق. يا بني! إياك ومصادقة الأحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، وإياك ومصادقة البخيل، فإنه يبعد عنك أحوجَ ما تكون إليه. وإياك ومصادقة الفاجر، فإنه يبيعك بالتافه. وإياك ومصادقة الكذاب، فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد، ويبعد عنك القريب.

وأوصى قيس بن عاصم المنْقَري بنيه عند احتضاره قال:

يا بنيَّ احفظوا عني ثلاثاً، فلا أحد أنصح لكم مني: إذا أنا مت فسوِّدوا كبارَكم، ولا تسوِّدوا صغارَكم، فيحقر الناس كبارَكم وتهونوا عليهم. وعليكم بحفظ المال، فإنه منبهة للكريم، ويُستغنى به عن اللئيم، وإياكم والمسألة فإنه أخس كسب الرجل.

اللحن ونشوء العامية:

كان من أثر الأسواق والحج وزعامة قريش أن توحّدت في الجاهلية لغات العرب، وتمثلت لهجاتها في لغة قريش؛ فلم يبق إلا بيض اللحون على أطراف المنطق. فلما جاء الإسلام، ونزل بها القرآن، وكان من بنيها النبيُّ الكريم والقائمون بالأمر بعده، تمت لها الغلبة. فخضعت لها الألسنة، وهويت إليها الأفئدة، وأصبحت لسانَ النبوة والملك، ولغة الحضارة والعلم، في أقطار المسلمين كافة. ولما كان الإسلام انقلاباً عظيماً له تأثيره في الأخلاق والطباع، وتغييره في السياسة والاجتماع، لم يكن للغة بُدٌّ من الخضوع له والتأثر به، فاتسعت مادتها وتشعبت أغراضها بالتعبير عن عقائد الدين، وأنظمه الملك، ومقتضيات الحضارة،ومصطلحات العلوم. وتهذبت ألفاظها ورقت أساليبها بما أثر في طباع القوم من بلاغة القرآن، وبشاشة الإسلام، وجمال المدنية، وتنوُّع المناظر الحضرية.

ثم كان من أثر الإسلام في حياة العرب أيضاً أن محا العصبية، وأزال الفوارق الاجتماعية وغيَّر مقاييس السيادة فجعلها بالتقوى والعبادة، وجمع شتات القبائل على عقيدة واحدة، وضم نَشَرَهم تحت راية جامعة. ثم خرج بهم من شبه الجزيرة إلى جهاد الشرك بالقرآن والسيف، فأوطأهم ديار كسرى وقيصر، وأوغل بهم في الأرض نصراً وفتحاً حتى ركزوا أعلامهم في أقصى الشرق وأدنى الغرب. ومنذ يومئذ لم تعد العربية لغة إقليم واحد ولا لسان شعب واحد، وإنما انحدرت مع الإسلام من بوادي الحجاز ونجد إلى حواضر البصرة والكوفة ودمشق وبغداد وقرطبة ومصر. واستفاضت على ألسنة المسلمين أحمرهم وأسودهم، والمتعرِّبين أدناهم وأبعدهم، وليس في مقدور هؤلاء بطبيعة الخَلق، أن ينطقوا بها كأهلها، فارتضخوا أنواعاً من اللكنة، وأحدثوا أوضاعاً من الخطأ، علقت بألسنة المستضعفين من العرب والناشئين منهم بين الموالي. ولذلك ظهر اللحن في الحواضر والمدن دون البادية، فقد بقيت اللغة على خلوصها فيها حتى آخر القرن الرابع بدت أعراض هذا الداء منذ زمن الرسول ﷺ. ثم أخذ يستفحل كلما توفرت أسبابه حتى فشا في الدولة الأموية فشوّاً تناول الخلفاء والخاصة. وخيف منه على القرآن فوضعوا له النحو والشكل والإعجام والنقط. على أن كل ذلك لم يعصم اللغة ولم يصدُّ عنها عادية اللحن، فأمعن العامة في التصحيف والتحريف حتى جعلوا اللغة لغتين: لغة الكتابة ولغة المحادثة كما هي الآن.

النحو:

يروي المؤرخون أن أبا الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ هو واضع مبادىء النحو، وأن السبب الذي حداه إلى التفكير فيه هو نشوء اللحن وهجوم العجمة. وذكروا في ذلك أنه دخل يوماً على زياد بن أبيه وهو والي العراقين، فقال له: «أصلح الله الأمير! إني أرى

العرب قد خالطت هذه الأعاجم ففسدت ألسنتهم. أفتأذن لي أن أضع لهم ما يقيمون به كلامهم؟ «فأبى عليه ذلك زياد ثم عاد فأمره بما نهاه عنه، لأنه سمع اللحن بأذنه من رجل دخل عليه يقول: «أصلح اللّه الأمير. تُوفي أبانا وترك بنون. . .» فوضع أبو الأسود باب التعجب ثم باب الفاعل والمفعول، وأخذ كلما سمع لحنة وضع القاعدة التي تصلحها. ثم تناوله منه أدباء البصرة والكوفة فكملوه وفصَّلوه كما سنذكر ذلك بعد. والغالب في ظننا أن أبا الأسود لم يضع النحو والنقط من ذات نفسه وإنشائه، وإنما يرجع أنه ألمَّ بالسريانية (وقد وُضع نَحْوُها قبل العربية) أو اتصل بقساوستها وأحبارها فساعده ذلك على وضع ما وضع. وعلى أية حال فإن أولية النحو لا تزال مجهولة.

العلم في العصر الأموي:

لم تكن نفوس العرب مهيَّأة بعد إلى العلم، ولا عقولهم ناضجة للبحث فيه؛ وإنما توزعتهم عواطف الدين وشواغل الفتح ونوازع الأدب، فاكتفوا منه بالضروري الموروث كالطب والنجوم. حتى إذا هالهم اللحن ودهمتهم العجمة، وتشعبت عليهم الأقضية، وضعوا النحو لضبط القرآن، والتفسير لحل مشكلة، والفقه لاستنباط الأحكام منه، ودونوا الحديث خوفاً من ضياعه أو افتعاله.

واقتضت حُنكة معاوية وحكمة خلفائة أن يستعينوا في تأييد ملكهم وتثبيت حكمهم بتجارب الماضين وأخبارهم، فألف عبيْد بن شَرْيَة كتاب الملوك وأخبار الماضين لمعاوية، وربما كتب غيرُه غَيرَه، ولكن شيئاً من ذلك لم يأتنا علمه. أما ترجمة العلوم الأجنبية فلم تُعنْ أحداً في هذا العصر، اللهم إلا خالد بن يزيد حفيد معاوية، فقد قيل إنه انصرف إلى العلم بعد فشله في المُلك، واستقدم جماعة من مدرسة الإسكندرية علموه الكيمياء وترجموا له شيئاً منها.

وجملة القول في هذا العصر أن كان فيه نُضج الآداب الجاهلية، ونشوء العلوم الإسلامية، وبداية النقل من العلوم الأجنبية.

الخط بعد الإسلام:

جاء الإسلام وما يكتب من العرب غير بضعة عشر رجلاً من قريش وبعض أهل المدينة وتجار اليهود. فلما كتب اللّه النصر للمسلمين على قريش في يوم بدر واتخذ بعض كتابهم أسرى، قَبل الرسول ﷺ من هؤلاء أن يفتدي كل منهم نفسه بتعليم عشرة من أطفال المسلمين الكتابة، فكثر سواد الكاتبين من أهل المدينة. وشاعت الكتابة بعد ذلك في العرب إطاعةً لأمر الرسول، ورغبة في كتابة القرآن، وطمعاً في دخول الدواوين، وانتشرت معهم في الأقطار المفتوحة.

وكان الخط في أول أمره خالياً من الإعجام والشكل، حتى فشا اللحن وخيف منه على القرآن. فضبط أبو الأسود الدؤلي في زمان معاوية أواخر الكلم في المصاحف بالنقط، فجعل علامة الفتحة نقطة من فوق الحرف، وعلامة الكسرة نقطة من أسفله، وعلامة الضمة نقطة بين يديه. واستعمل الناس هذه النقط وكتبوها بمداد مخالف. فلما تغايرت أشكال الخط، وتشابهت أوضاع الحروف، فالتبست الجيم بالحاء، والدال بالذال، والسين والشين، أمر الحجاج نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر تلميذي أبي الأسود فوضعا الإعجام بالمداد الذي تكتب به الكلمة تمييزاً للحرف بعضها من بعض. ثم جاء بعد ذلك الخليل بن أحمد ووضع الشكل على هذا النمط المعروف، فعمل نقط أبي الأسود.

وفي العصر العباسي ناله ما نال كل شيء فيه من النمو والتقدم. فقد تنافس الكتّاب في تجويده، وتفننوا في تنويعه، وخالفوا بين أوضاعه في بغداد وأوضاعه في الكوفة، باختراع الأقلام المختلفة كالقلم المرصع، وقلم النساخ، والقلم الرياسي (نسبة إلى مخترعه ذي الرياستين الفضل بن سهل). ثم تعددت تلك الأقلام وتنوعت حتى نيّفت أشكال الكوفي على عشرين شكلاً. أما الخط النسخي فقد كان مستعملاً بين الناس في غير الكتابة الرسمية حتى جاء أبو علي محمد بن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ فجوّد هذا الخط ونمّقه حتى تميز من أصله بالحسن والجودة، واستعمل في كتابة المصاحف وأدخل في اللواوين، وجاء بعده علي بن هلال المتوفى سنة ٤١٣ فزاد في تهذيبه وتحسينه حتى حل محل الكوفي. ثم تنوع الخط النسخي إلى عدة أقلام (كالطومار) وعرض قطّته أربع وعشرون شعيرة من شعير البرذون، أو ثلاثة ملليمترات، (والثلثين) وعرضه ملليمتران، (والنصف) وقياسه ملليمتر ونصف (والثلث) وعرضه ملليمتر واحد. ثم تتدرج الأقلام في الدقة، فيجيء خفيف الثلث، فاللؤلؤ، فالتوقيع، فالرقاع، فالمحقق، فالغبار، وهو أدقها، وبه كانت تكتب بطائق الحمام الزاجل ونحوها، ولا يزال الخط العربي يتنوع ويتفرع خضوعاً لنظم الطبيعة في النشوء والرقيّ. وكثير من الأمم التي استضاءت بنور الإسلام واستعربت بلغته يكتب به، كالفارسية والأفغانية والأردية واللغات الإفريقية.

على أن اقتصار العرب في خطهم على رسم الحروف الساكنة دون الصوتية قد أوقع القارئ في لبس شديد. فإن الكتاب قد برموا بالشكل وضاقوا به فتركوه. فأصبح القارئ إذا رأى أمامه لفظ (علم) مكتوبة مثلاً لا يدري كيف يقرأه إلا إذا فهم المقصود منه في سياق الكلام. فهو يقرأ: عَلِمَ أو عُلِمَ أو عَلَم أو عُلَم أو عَلَم أو عِلْم. ولذلك يدعو كثير من المصلحين اليوم إلى إصلاح الخط العربي، حتى غلا بعضهم فدعا إلى اتخاذ الحروف اللاتينية كما فعلت تركيا بعد سقوط الخلافة. وقد رصد مجمع اللغة العربية بالقاهرة جائزة قدرها ألف جنيه لمن يبتكر طريقة للخط العربي تكمل نقصه وترفع قصوره. فجاءته من أكثر البلدان الشرقية والغربية طرق شتى نيفت على الألف، ولكنها لم تصب الغرض الذي نصبه

المجمع، فألف في عام ١٩٥٩ لجنة من بعض أعضائه ومن ذوي الاختصاص بوزارة التربية والتعليم في الجمهورية العربية المتحدة فليت الأمر على جميع وجوهه ثم اتفقت على بقاء الخط كما هو وأوصت باتباع الشكل كاملاً في كتب التعليم الابتدائي ثم يقل بالتدريج في المراحل المتعاقبة حتى يقتصر منه على شكل ما يشكل من الكلمات، وبرأيها أخذ المجمع.

obeikandl.com